

عاطف بلا حدود



دراسة في المسئلة اليهودية وكتابات لاركس ومارتر
وتسميرلين وسيمونزفرويد ومارتنه بوبر وويل ديرمان وآخرين .
دكتور/ عبد المنعم الحفني



عاطف اليعقود

دراسة في المسئلة اليهودية وكتاباته لماركس ومارتر
وتشمبرلين وسيمونزفرويد ومارتن بوبر وديل ديرلاند وآخرين .

دكتور/ عبد المنعم الحفنى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

وبعد ... فقد كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً فنفذت الطبعة الأولى بحمد الله ، واستوجبت أهمية الكتاب والموضوع الذى يعالجه طبعة جديدة ، وما زالت الأيام تترى والبراهين تُقام على أنه لا سلام فى العالم طالما اليهودية قائمة .

وصدق ماركس اليهودى وهو يقول : إن النزعة اليهودية لو زالت عن اليهودى لما صار بهذه العدوانية التى هو عليها الآن . وصدق إذ قال إن أمريكا هى معقل اليهودية فى العالم ، لأن اليهودية هى الرأسمالية مجسّمة ميثافيزيقياً .

دكتور

عبد المنعم الحفنى

يناير ١٩٩٧

مقدمة . . . ودراسة

فى نهاية هذا الكتاب سيجد القارئ ترجمة لمقال لكارل ماركس بعنوان « المسألة اليهودية » ولكن الكتاب فى الواقع يتضمن ترجمة لأكثر من كتاب ، فهناك ترجمة لبرونوباور ، وأخرى لجان بول سارتر ، وثالثة لسيجموند فرويد ، ورابعة لجذاذات عن ويل ديورانت ، ودراسات للفيلسوف اليهودى مارتن بوهر ، ومقتطفات من كفاحى لهتلر ، ودراسات لإسرائيل كوهين ، وابن هشام ، وابن سعد ، وجورج ريترفون شوينر ، وكارل كروجر ، وجوبينو ، وتشمبرلين ، وفشته ، ومارتن لوتر ، وريئاب ، وهرتزل ، وبن جوريون ، وكلها تدور حول ما يسمى بالمسألة اليهودية . غير أن مقال كارل ماركس يتبقى صلب الكتاب ، والمحور الذى تدور حوله بقية الترجمات ، والتى يجمعها جميعا حول موضوعه .

ومقال ماركس ترجمة عن أصل فرنسى ، للأصل الألمانى ، الجزء الأول من الأعمال الكاملة لكارل ماركس ، عن المكتبة الفلسفية لدار نشر كوست بباريس سنة ١٩٥٢ ، ومراجعة على الترجمة الإنجليزية للنص الألمانى ، نشر المكتبة الفلسفية بنيويورك سنة ١٩٥٩ بعنوان

عالم بلا يهود A World Without Jews من ترجمة داجوبيرت رونز Dagobert Runes وهو فيلسوف صهيوني ، ومؤلفاته كثيرة في اليهوديات ، وينشر كتاب ماركس كنموذج للكتابات المعادية للسامية ، ومقدمته تطفح بالعداء لماركس ، وقد لاحظت فروقا كبيرة بين الترجمتين الفرنسية والإنجليزية ، وهناك سطور في الترجمة الفرنسية غير موجودة في الترجمة الإنجليزية ، وعند النقل إلى العربية حاولت أن أورد السطور الأزيد ، لكنني كنت أتمنى لو ترجمت المقال مباشرة عن الألمانية .



- لكن لماذا كتاب ماركس ؟

لقد وجدت خيطا طويلا يشد كتابات كثيرة ، ويجمعها جميعا موضوع واحد هو : اليهود كمشكلة في العالم كله ، حتى يبدو أن العالم بأسره يعاني من هذه المشكلة . وقد نعجب . لكن لماذا العجب ؟ ألسنا نعانى منهم نحن أنفسنا ؟ ألم يصبح اليهود مشكلة بالنسبة لنا نحن أيضا حتى بتنا نفكر ما الحل ، وكيف الخلاص ؟



ومن قبل ، في تاريخنا الإسلامي ، كان اليهود مشكلة وأي مشكلة ! عانى منهم الرسول كثيرا ، ونزلت فيهم وعندهم سور كثيرة ، وأنوا

المسلمين كثيراً ، وأثاروا فتنة كبرى ، وأشاعوا فى ديننا ما يسميه رجال الفقه بالإسرائيليات .

لهذا كان لابد أن نحيط علماً بالمشكلة اليهودية ، ونعرف تاريخها ، ونتعرف إلى رأى الآخرين فيها ، والحل الإسلامى لها .. وكل شئ عنها ؟

هذا من جهة .. لكن لماذا وجهة نظر ماركس بالذات ؟

ربما لأنه الوحيد الذى يتناولها بشكل علمى كمسألة ، والذى يعرض لجوانبها كموقف لا كتاريخ ، ويتصدى لها بالعلم لا بالتحيز . فالذى يعجبني فى مقال ماركس منهجه الديالكتيكى ، وليس النتيجة التى يتوصل إليها ، بمعنى أنه يتناول المسألة اليهودية بالتحليل الجدلى ، كموقف متعين بالزمان والمكان اللذين تتناولها فيهما ، فالنتيجة مرتبطة بزمانه ومكانه ، وليست نتيجة أزلية ، أما المنهج الجدلى فهو وسيلة علمية منطقية ، صالحة لكل زمان ومكان . وأنا أترجم ماركس لمنهجه الجدلى ، الذى إذا استخدمناه لمناقشة هذه القضية ، وأى قضية ، لتوصلنا إلى تحليلها الصحيح فى زمنها ومكانها ، كموقف .

لكنى عندما أتصدى لها ، لابد أن أحيط بجوانبها ، أى أن أدرسها فى التاريخ ، ثم أدرسها كموقف لآخرين ، وأخيراً أدرسها كموقف

يحتوينى أنا ، بمعنى أنى أتناولها تاريخيا ، ثم أتناول تحليل الآخرين لها كمواقف بالنسبة لهم ، ثم أتناولها كموقف يحتوينى كمصرى أو كعربى ويحتوى اليهود .

والواقع أنى لا أجد فترة من فترات التاريخ لم يظهر اليهود فيها كمشكلة . خذ التوراة ، وهو كتاب يضم تقارير عن فترات من التاريخ ، تبدأ من خلق آدم ، حتى قبل ظهور المسيح . والتوراة حافل بالقصص التى تظهرهم كمشكلة لغيرهم من الشعوب القديمة : المصريين ، والكنعانيين ، والفلسطينيين ، وعما ليق ، والموابيين ، والبابليين ، والفرس ، والرومان . وبعض التاريخ الرومانى والمسيحى حكايات حولهم كمشكلة ، سرعان ما تنتقل لعرب الجزيرة ، وسرعان ما يظهرون أنفسهم كمشكلة للمسلمين . ويدور التاريخ دورة سريعة وتنتقل المشكلة لأوروبا وتبرز فى ألمانيا بالذات ، ثم يدور التاريخ دورة لا تكاد تذكر ، ولكنها تكفى ، ليظهروا على المسرح من جديد ، كمشكلة ولكن فى منطقة الشرق الأوسط .

وألاحظ أنهم على كل مسرح ظهروا عليه لم تجد الشعوب من حل لمشكلتهم إلا الحرب والقتال . ولقد حدث أن تصور المسلمون يوما أن بالإمكان أن يعايشوهم فى سلام فيما يشبه الآن التعايش السلمى ، فى المدينة وحول أرباضها ، وسرعان ما تبدد وهمهم ، ولم يكن هناك

من حل لمشكلتهم سوى قتالهم .



وإذا جاز لنا أن نستخدم دياكتيك هيجل ، لقلنا : فى تصوّرنا أن القضية كانت دائماً المال وسيطرة اليهود وجشعهم والربا والخيانة ، وأن نقيض القضية هو رد فعل الشعوب ، ومركب القضية والنقيض هو حركة التاريخ المتدافعة عبر كل هذه الأزمان والأمصار . وليس قيام إسرائيل إلا من قبيل مركب القضية والنقيض ، ولكن التاريخ متحرك ، وتحكمه الصيرورة ، والمركب الجديد يتخلّق من النقيض ، والنقيض لإسرائيل تشريد الشعب الفلسطينى . وما معنى التشريد ؟ فى رأى توينبى أن الدولة عندما تقوم ، ويكون على تخومها خوارج يدقون أبوابها ويهاجمونها باستمرار ، لابد أن تنهار الأبواب ويفزوها الخوارج وتسقط الدولة . هكذا يعلمنا التاريخ ، وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية بسبب وجود الخوارج الجرمان على تخومها . ولقد قامت إسرائيل لتستوعب يهود العالم وتحل المسألة اليهودية . ولكن المسألة اليهودية لم يحلها قيام إسرائيل ، بل خلق قيام إسرائيل تناقضات داخل إسرائيل ، وخلق - المسألة الفلسطينية . العالم اليوم لم يعد يعرف يهود مضطهدون ، ولكن فيه يهوداً عنصريين وحركة يهودية عنصرية ، وعرباً مضطهدين وشعباً مشرداً وأراض محتلة .

ولسنا نعرف إلا القليل عن تاريخ اليهود قبل الدولة الرومانية ، ولا توجد إلا أقل الآثار التي تتناول أو تذكر شيئاً عن اليهود قبل الدولة الرومانية . ولم نعرف أنه كانت لهم دولة إلا من كتاب التوراة . والتوراة اليهودية ، أى هذه التوراة الموجودة فى أيدينا اليوم ، كتبها من يسمى عزراً الكاهن ، الذى ورد ذكره فى القرآن تحت اسم عزير ، حيث يقول القرآن « وقالت اليهود عزير ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » (سورة التوبة الآية ٣٠)

ويقول اليهود إن عزيراً جمع التوراة بعد موسى بألف عام . والتوراة اليهودية مجموعة حكايات ونواه ، هدفها : تعزيز قومية اليهود ، ونهيبهم عن الاختلاط بغيرهم ، وتأكيد تفوقهم على بقية البشر .

هذه أهداف عزرا الكاهن أو عزير ، فالتوراة كتاب وطنى ، أو كتاب فى التربية الوطنية لليهود . ونحن لا نثق بأقوال عزراً أو عزير ، لأسباب سنوردها فيما بعد ، ولا يمكن أن نعتبر التوراة الحالية هى الكتاب الذى أنزل على موسى النبى ، لأن التوراة الحالية عبارة عن أسفار خمسة تنسب لموسى ، وأسفار غيرها لمرحلة بعد موسى .

والأسفار التي تنسب لموسى يكثر بها الخلط التاريخي ، فهناك أحداث تشترك بأحداث تقع بعدها بمئات السنين ، ولا ذكر للملك بأسمائهم ، ويقال إن الإسرائيليين ظلوا بمصر ٤٠٠ سنة ، ولكن الآثار المصرية تخلو تماماً من أى ذكر لهم ، وخاصة آثار الأسرات ابتداء من الرابعة عشرة إلى التاسعة عشرة ، ولا نعرف عنهم شيئاً إلا ما ورد فى لوح مرنبتاح الشهير . وكان مرنبتاح الإبن الثالث عشر لرمسيس الثانى ، وتغنى شعراء مصر أيامه بانتصاراته ، ولأول مرة يأتى ذكر كلمة إسرائيل ، فى نص مصرى ، فى اللوح الذى اكتشف وأطلق عليه اسمه ، والذى يشيد بتخريب جيوش الملك لإسرائيل .

مع ذلك يقال إن دولتهم هذه المزعومة فى التاريخ القديم دمرت ثلاث مرات ، فى المرة الأولى على يد سرجون الثانى ملك آشور نحو سنة ٧٣٠ ق . م ، وفى المرة الثانية على يد ملك بابل نبوخذ ناصر سنة ٥٩٧ ق . م ، وفى المرة الثالثة على يد الإمبراطور الرومانى بومباى ثم تيتوس^(١) . وبعدها ولوا الأدبار هرباً من الرومان ، وارتحلوا شرقاً إلى الأناضول وفارس والروسيا .

ويقول ديورانت إنهم استبعدوا عن الوظائف فى فارس ، ولكننا نلاحظ أن الوظائف كانت محرمة على سواهم إلا طبقة النبلاء من

Abbot : Israel in Egypt, p . 43 . - Baron : Social and Religious (١) History of Jews - Will Durant : The Story of Civilization, The Age of Faith p . 34 .

الفرس ، وإذاً لم يكن هناك اضطهاد لهم ، بل إن الفرس سمحوا لهم بإقامة شعائهم . واشتغلوا فى العراق بالتجارة ، ولكنهم قلبوا التجارة من حرفة وسيطة شريفة إلى مهنة يسودها الربا وتعرف الاحتكار ، ومن ثم جنوا الأموال الطائلة وحازوا الأملاك وتضاعف عددهم بسرعة فقد كانت قوانين فارس تبيح تعدد الزوجات ، والشريعة اليهودية تبيح تعدد الزوجات لأربع زوجات ، ومن ثم تكاثروا وهاجروا إلى سوريا ، وإلى الجنوب ، إلى شبه الجزيرة العربية ، وإلى الغرب إلى كل بلاد البحر الأبيض . وشغلوا مناطق بأكملها مثل خيبر ، وكان عددهم فى يثرب قدر عدد العرب ، وبشروا باليهودية ، وعبروا إلى الحبشة وتزايدوا حتى قيل إنهم بلغوا سنة ٣١٥ م نصف عدد سكان الحبشة كلها ، وتميزت طريقتهم فى الحياة ، فهم لا يشترتون ، كما يأمرهم التالود ، إلا من اليهود ، ولا يقبلون على لحم لدى جزار غير يهودى ، ويقرضون المال بالربا لغير اليهود ، وسكنوا أحياء خاصة بهم أطلق عليها اسم الجيتو Ghetto ، وكانت أول تسمية لها فى إيطاليا ، لأنهم كثروا فى إيطاليا حيث كان المال والتجارة فى مدنها القديمة ، والجيتو هو حى اليهود . واتهمهم البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٤٧ م بخطف أطفال المسيحيين وذبحهم كما يدعونهم التالود . وكانت أكبر مؤامراتهم على المسيح . وانقسم العالم إلى مسيحيين ويهود ، ورأى اليهود فى المسيحيين أكبر أعدائهم ، وكان

المسيح رمزهم فأنكروا وجوده إطلاقاً ، وسيطروا على وسائل النشر ، وشجعوا كل كتاب ينقض المسيحية ، ولعل قضية نيتشه معروفة ، ولم يحدث أن نشرت دار نشر كتب نيتشه أو ترجمتها إلا وقام بها اليهود . وكان نيتشه عدو المسيحية رقم ٢ بعد اليهود ، حتى اتخذ النازي رمزاً لعدائهم للمسيحية ، واتخذوا الصليب المعقوف رمزاً لدولتهم متناقضاً مع الصليب .

ومن الغريب أن يؤله اليهود والنازي نيتشه ، وكان الاثنان يعاديان المسيحية فاتخذاه حصاناً لهما ، وإن كان لكل أسبابه . وكره المسيحيون اليهود لعداء اليهود للمسيحية والمسيحيين ، وكرهت الشعوب اليهود لأنهم ما كانوا ينتمون إليها فانتماؤهم للمال ، وثار الناس في إنجلترا على اليهود سنة ١٢٥٧ ، وكانت ثورة من لا يملكون ضد من يملكون ، أو ثورة المستغلين ضد المستغلين ، واجتاحت الثورة عليهم مدن لندن وكانتربري ونورثامبتون ومانشستر وورستر ولينكولن وكامبريدج ، وكلها مدن تجارية وصناعية حيث تتمثل سيطرة اليهود على أرزاق المجتمع الإنجليزي . ونهب المتظاهرون بيوت اليهود ودمروا وأحرقوا حجج الملكية والكمبيالات ، الأمر الذي يدلنا على جوهر التمرد ضد اليهود ، وأنه تمرد ضد الاستغلال والربا والمتاجرة بالمال . وهل هناك أروع من تصوير شكسبير لوضعية اليهودى وعدوانيته

الاستغلالية في « تاجر البندقية »^(١) ، أو من تصوير مارلو المعجز في « يهودى مالطا »^(٢) ، أو من تصوير ديكنز المبدع الفنان في « أوليفر تويست » ، ولعل ديكنز دونهم جميعاً يبلغ حد الروعة وهو يرسم في تفاصيل دقيقة انحطاط الروح اليهودية وماديتها المسرفة وابتعادها الموهل عن كل القيم الأخلاقية السائدة ، واستغلالها البشع للعمال والكادحين ، وحتى الأطفال ، فالأدب كشفهم والمسرح عَراهم ، وبالأدب والمسرح بدأت مرحلة وعى الشعوب وتنبيه الغافلين .

وقابل اليهود ذلك بمحاولة إخفاء معالم اليهودى ، ليضيع في الزحام ، وبدأت حركة علمائية يهودية تطالب اليهود بالتخلّى عن القفطان والطاقيّة اليهوديتين ، وقصّ اللحية ، والتزيى بالزى المدنى للناس ، والتسمية بأسمائهم ، وترك الجيتو ، ولكنهم كانوا يُعرفون رغم ذلك ، لأنهم وإن تخلّوا عن المظهر إلا أنهم لم يتخلّوا عن المخبر ، عن السلوك ، فكانوا يعرفون بالسلوك ، ومن ثم بدأوا يفكرون بطريقة أخرى .

وانتشرت بين اليهود الدعوة إلى التخلّى عن الدين اليهودى واعتناق المسيحية وأديان الشعوب التى يحيون بينها ، ومن ذلك أن

The Merchant of Venice . (١)

Marlowe : The Jew of Malta (٢)

ترجمة عبد المنعم الحفنى : منشورات البرنامج الثانى بالإذاعة المصرية سنة ١٩٦٢

عبد الله بن سبأ صاحب الفتنة الكبرى في الإسلام ، كان يهودياً اعتنق الإسلام ، وظل مخلصاً لدينه الأصلي يبيت رموزه وأصوله في الإسلام ، حتى أن علي بن أبي طالب أحلّ دمه وتبراً مما يدعو إليه المسلمون . ومن ذلك أيضاً أن والد كارل ماركس اعتنق المسيحية وتزوج مسيحية ليحل أزمته نهائياً مع المجتمع الألماني المتدين . ومنه أيضاً أن « برونو باور » دعا اليهود الألمان للتخلي عن يهوديتهم باعتبارها النواة التي يتخلق حولها الأسلوب اليهودي في الحياة . ولكن اليهود بدأت تقوى لديهم ، أقول تقوى ولا أقول تظهر فكرة العودة لفلسطين حيث كانت لهم ، فيما يزعمون ، دولة في يوم من الأيام ، ليعيشوا هناك بأسلوبهم ، داخل حدود دولتهم المزعومة ، والتي يدّعون أن الله وعدهم بأن تكون حدودها من الفرات إلى النيل ، وهو ما عرف فيما بعد باسم **الحل الصهيوني** .



ولا نعرف الأصل التاريخي لليهود . من هم هؤلاء اليهود ؟ أية سلالة أو جنس يمثلون ؟ من أين قدموا ؟ لا يوجد شيء علمي عنهم . كل مانعرفه ديني . واليهود من الأمم البائدة . بل إنه لا دليل على قيام دولة لهم ، ولا يتحدث عن هذه الدولة المزعومة إلا كتابهم التوراة . وليست التوراة هي التوراة التي يتحدث عنها القرآن حينما يقول « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين

هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» (سورة المائدة الآية ٤٤). وأما الزبور فيرد ذكره في القرآن حيث يقول «وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا» (سورة الإسراء الآية ٥٥). ويقول اليهود إن كتاب داود هو المزامير، وأن الزبور هو المزامير، ولكن المزامير لا يمكن أن تكون زبور داود، فالزبور كتاب الله، وأما المزامير فهي أناشيد، بعضها مسروق من أناشيد أخناتون، وبعضها يطغى بالأوصاف الجنسية الفاضحة التي تفصح عن هوس جنسى هو داء يصيب الإنسان ولا يمكن أن يكون مصدره الله. وإذا كان عزراً أو عزيز هو الذى دُون التوراة أو أسفار موسى الخمسة، بعد ألف عام من نزولها، فليس من المعقول ألا يتناولها التغيير وخاصة بعد كل هذا التاريخ المخزى المذل؟ ولا يعقل أن يكون كتاب مثل نشيد الأنشاد، وهو كتاب جنسى فاضح، سفراً من أسفار التوراة منزلاً من عند الله.

وينفعل الكاتب الإنجليزي هـ. ج. ويلز بالتوراة فيقول بغضب إن أسفار حزقيال ودانيال وإستير وهوشع ممن يعتبرهم اليهود أنبياء، ليست أسفاراً دينية، ولكنها أسفاراً وطنية، وليس حزقيال ودانيال وغيرهما أنبياء بالمعنى اللاحق، ولكنهم ساسة ووطنيون، ولذلك لا يمكن أن نعتد على التوراة كمصدر تاريخى علمى لأصل اليهود الإثنولوجى، ولكنه يصلح تفسيراً لغلوهم السامى ولسعيتهم

لإنشاء وطن قومي ، وينبغي أن نفهم من أول الأمر أنه لا يوجد في التاريخ ما يشهد على صدق التوراة اليهودية ، وما يقوم دليلاً على أن أحداثها قد وقعت في يوم من الأيام .

وتزعم التوراة : أن اليهود كانوا إثنتا عشرة عشيرة خرجت من صلب النبي يعقوب ، فأولاد يعقوب إثنا عشر ولداً أو سبطاً ، ومن هؤلاء خرج الشعب اليهودي .

كما تزعم التوراة : أن اليهود يبدأ تاريخهم بخروجهم من مصر ، وتصور موسى بطلاً قومياً ومؤسس دولة ، وتقول إنهم حاربوا القبائل التي تسكن المنطقة من سيناء مصر حتى جبل حرمون في سوريا ، ومن الأردن حتى سواحل فينيقيا ، وأن يشوع بن نون خليفة موسى عزز فتوحاتهم وأرسى دعائم الدولة .

وتزعم التوراة أن الله قد وعد اليهود في سفر التكوين أن يعطيهم الأرض من النيل إلى الفرات ، حيث يخاطب الرب إبراهيم فيقول : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . (سفر التكوين الإصحاح الخامس ص ٢٢) . واتخذت الحركة الصهيونية هذه العبارة أساساً لحدود دولة إسرائيل الحديثة ، ونقشتها على أبواب الكنيس (برلمان إسرائيل) . وهذا هو الأساس الديني الذي تستند إليه الحركة الصهيونية ، وهي كأي حركة عنصرية تستند

إلى أصول غيبية ، فحيث ينعدم التفكير العلمى ويقصر المنطق يتقدم التفسير الغيبى لما هو ليس بمعقول ، لكى يقوى به عزم الأتباع ، وتوصل بواسطته الرغبة والإرادة فى إنشاء وطن قومى . ولسنا نجد شبيهاً لذلك إلا فى الحركة الفاشية أو النازية ، عندما تستند على دعوى بالتفوق العنصرى ، أو بالاختيار من لدن الله ، أو بحمل أعباء رسالة تتفرد بها عن بقية شعوب العالم .



فلماذا سُمى اليهود بالساميين ؟

السامية نسبة إلى سام . وسام كما تدعى التوراة هو الابن الأكبر لنوح ، وكان سام أول إنسان يباركه الله بعد طرد آدم من الجنة . وتدعى التوراة أن الله اختاره نون إخوته لهذه البركة ، وكانت هذه الفرية أول فرية عنصرية ، وتروى لها التوراة قصة وأى قصة !

تروى أن نوحاً كان له ثلاثة أولاد ، هم سام وحام ويافت ، فلما انتهى الطوفان واستقر نوح على اليابسة « ابتدأ فلاحاً وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام ، أبو كنعان ، عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجاً ، فأخذ سام ويافت الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما . فلما

استيقظ نوح من الخمر علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته . وقال مبارك الرب إله سام ، وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله لياث فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم « (سفر التكوين ص ١٥) .

ويتحدث سفر التكوين عن الكنعانيين وهو بمعرض التحدث عن أصل العالم ، مع أن الكنعانيين لم يكونوا قد ظهوروا في التاريخ بعد ، ولكن ما العمل والتوراة كتبها الحاخامات بعد ألف سنة من زمن موسى ، وفي خلال هذه الألف سنة عرف اليهود المعارك والحروب مع الكنعانيين فكهروهم ولم يجدوا بأساً أن ينفثوا عن كراهيتهم للكنعانيين منذ أول الخليقة ، وأن يستعلوا عليهم ، ناسبين هذا الاستعلاء لله عز وجل ولنوح عليه السلام ! ويدعى اليهود أن الأمم جميعها خرجت من حام وياث . أى خلط علمي !! وأن اليهود من نسل سام ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالساميين ، وجاء تسمية العداء لهم بالعداء للسامية .

وتزعم التوراة أن سام بن نوح أنجب من الأحفاد يقطان ، وأن يقطان أبو العرب ، وأنجب إبراهيم أو إبراهيم ، وأن إبراهيم أنجب إسماعيل ثم إسحق ، وأن الله افتدى إسحق بكبش سمين ، أى أنها تزعم أن الفداء كان لإسحق الأصغر ، لأن أم إسحق كانت عبرانية لكن أم إسماعيل كانت من الأمم . وتقع التوراة في التناقض ، فهي إذ

تدعى أن الله قال لإبراهيم اذهب من أرضك إلى الأرض التي أريك
فأجعلك أمة عظيمة وأبارك وأعظم اسمك ، وتكون بركة وأبارك
مباركك ، ولاعنة ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض (سفر
التكوين ص ٢٢) ، مع ذلك تعود وتقتصر البركة على بنى إسرائيل لا
غير ، دون العرب أبناء إسماعيل الذين قُصِدوا بالبركة وبالْبشارة بأنهم
أمة عظيمة !!

وينجب إسحق يعقوب ، وتدعى التوراة أن الله يخاطبه فيقول «
إسمك يعقوب ، ولا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل يكون اسمك
إسرائيل ، فدعى اسمه إسرائيل » (سفر التكوين ص ٥٨) .

وإسرائيل اسم أعجمى عبرى مركب من كلمتين إسرئى بمعنى
عبد ، وثيل بمعنى الله ، فتكون ترجمته عبد الله . ومن هنا يأتى
اسمهم بالإسرائيليين أى أبناء إسرائيل ، وتدعى التوراة أن إسرائيل
أنجب اثنتى عشر سبطا ، وأن يشوع بن نون قسم الأرض عليهم ،
وكان منهم من يُدعى يهودا ، ومن أسباطه خرج من أقام مملكة يهودا
التي سيطرت على كل شعب إسرائيل ، ومن ثم أصبح سكانها يُدعون
اليهود ، مثلما يسمى سكان مصر بالمصريين . وهذا هو أصل
تسميتهم باليهود .



أما إسمهم العبرانيون ، فهو من فعل عَبَّرَ العبري والعربي .
 ويدعى سفر يشوع « أن الرب كلم يشوع بن نون خادماً موسى قائلاً
 موسى عبيدي قد مات ، فالآن قم " اعبِر " هذا الأردن ، أنت وكل هذا
 الشعب ، إلى الأرض التي أنا معطيها لهم ... وقال لهم يشوع "
 اعبروا " أمام تابوت الرب .. لكي تكون هذه علامة في وسطكم ، إذا
 سأل غداً بنوكم مالكم وهذه الحجارة ، تقولون لهم إن مياه الأردن قد
 انفلقت أمام تابوت عهد الرب عند " عبوره " الأردن ... على اليابسة
 عبر إسرائيل هذا الأردن ، لأن الرب إلهكم قد يبس مياه الأردن من
 أمامكم ، حتى " عبرتم " ، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذي
 يبسه من أمامنا حتى " عبرنا " » (سفر يشوع الإصحاح الرابع
 ص ٣٤٢) .

فالأصل اللغوي للعبرانيين فعل " عبر " ، وهو في اللغة العربية
 كما في اللغة العبرية . والعبرية لغة العبرانيين ، وهذا هو العبور
 أية اليهود التي تميزهم على الأمم ، فالرب في زعمهم قد أمكنهم من
 العبور مرتين ، في مصر عبر بحر سوف ، وفي الأردن عبر نهره ،
 ويقال إن هناك مرة ثالثة في العراق حيث عبه إبراهيم إلى
 فلسطين .

ويرى مارتن بوبر^(١) ، الفيلسوف اليهودي ، أن الأصل اللغوي لكلمة " عبراني " هو كلمة عابيرو habiru التي صارت فيما بعد hebrew ، وهابيرو أو عابيرو معناها الشخص الرحالة المتجول غير المستقر . وقبائل إسرائيل كانت قبائل رحالة ، وكان إبراهيم دائم التنقل ، وكذلك إسحق ويعقوب ، وقد ارتحل يعقوب وبنوه إلى مصر . ويرى بوبر أن الارتحال يخلق المقاتل ، وأن الإسرائيليين كانوا مقاتلين ، ويضرب المثل بسفر التثنية حيث يقول الرب ، كما تزعم التوراة ، « أنتم أولاد الرب إلهكم ، لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، وقد اختارك الرب كي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (الإصحاح الرابع عشر) !!

هل هذا معقول ؟ أنا لا أصدق ما أقرأ ، ولا أصدق أن هذا البوبر العنصري الغيبي المستشهد بكلام حبر كاهن ، حاول أن يكون من

(١) مارتن بوبر فيلسوف يهودي ولد وعاش في ألمانيا ، ثم فر أمام النازي إلى بريطانيا ، فالولايات المتحدة واستقر أخيراً في إسرائيل يدرّس في الجامعة العبرية بالقدس ، وهو من المؤسسين للحركة الصهيونية ، وكان من أنصار وايزمن ضد هرتزل ، ومات في إسرائيل سنة ١٩٦٥ ويشتهر بوبر بكتاباتة في التربية اليهودية ، وحاولت نور النشر جعله من المفكرين الوجوديين المحدثين لأنه القائل أن وجود الانا يستتبع وجود الأنت ، فإذا اعترف الانا بالآنت قام بين الاثنين حوار هو روح الديمقراطية دليل المساواة . (الحفنى) .

كبار المفكرين والفلاسفة وأن يتبوأ مكاناً فى الفكر الإنسانى المعاصر
إلى جانب سارتر وهایدجر وكيركجورد !!!



إننا نتحنى احتراماً لأسماء كبيرة فى الأدب والفلسفة ، لأن
أصحابها قنّوا بعقولهم طريقاً لهم فى جبال الفكر وكانت لهم نظرات
وأفكار ، هؤلاء الناس يصيرون مرجعيين ، أى أننا نرجع إليهم
ونستشهد بأقوالهم . لكن ماذا لو كان الواحد من هؤلاء مخطئاً ؟ ماذا
لو كان هو نفسه ضحية الدعاية ؟ لا أدرى ، وإنما يجب ونحن نقرأ أن
نحاذر ، وأن نعرف أولاً لمن نقرأ ، ونلم بأطراف حياة الكاتب ، ونعرف
شيئاً عن دار النشر التى تنشر له ... أقول إن هذا ضرورى دائماً .

ويل ديورانت ^(١) من هؤلاء المرجعيين . وهو فليسوف ومؤرخ
فلسفة ، كتب تاريخ الحضارة فى سبعة مجلدات ، وأفرد لليهود
جزءاً لا يتناسب مع إسهامهم الحضارى ، لأن ما يكتب عن شعب
بالمقارنة لما يكتب عن شعب آخر ينبغى أن يتناسب مع إسهام الشعبين

(١) ويل ديورانت : ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين ، وتلقى العلم فى أمريكا ،
وعاش بها ، ودرس على يد مورجان وديوى وحصل على الدكتوراه عام
١٩١٧ واشتغل بالتدريس وطاف العالم وكتب قصة الفلسفة ، وقصة
الحضارة . (الحفنى) .

فى الحضارة . فهل من المعقول أن يكون إسهام اليهود أكبر من إسهام العرب ؟ شئ غريب هذا الذى أقرأه فى موسوعته ، والأغرب أنه يستشهد بمراجع أصحابها يهود ، كأنه يروى حكاية ويستشهد بأن قائلها فلان ، لكن بمن يستشهد قائلها ؟ مع ذلك فديورانت تُرجم إلى العربية ، وأشرفت جامعة الدول العربية على ترجمته ، ولم ينبر المترجم للرد على ديورانت !

ويتساءل ديورانت : لماذا العداء بين اليهود والشعوب ؟

ويقول « إن المصادر الرئيسية للعداء كانت دائماً مصادر اقتصادية ^(١) ، ولكن الخلافات الدينية بين اليهود وغير اليهود زادت حدة الخلافات الاقتصادية ، وجعلتها مجرد غطاء لها ، والمسلمون لم يكرهوا اليهود فى يثرب إلا عندما شككوا فى نبوة محمد ، والمسيحيون يرددون كل أحد قصة صلب اليهود للمسيح وهم منهم » .

وتقول التوراة : إن العداء لليهود كان فى مصر القديمة لأن اليهود كانوا أعظم من المصريين . « هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينمو ، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون فى الأرض » (سفر الخروج الإصحاح الأول) .

قول غريب عزيزى القارئ ! فالتاريخ المصرى لم يعرف اليهود كشعب

Vol 4 : The Age of Faith, P. 385 .

(١)

أعظم وأكثر من المصريين ، وإنما عرفهم المصريون عبيداً أرقاء ، وتحدثنا لوحة « مرنتباح » أن المصريين قضوا على الإسرائيليين . هذا هو كل ما ورد عن الإسرائيليين في الآثار المصرية ، نذكر عابر ولا شيء غير ذلك .



ويصف القرآن النبي إبراهيم أعظم وصف ، فهو فيه باحث عن الحقيقة بالمصطلح الفلسفي . وهو يبدأ « مفكراً » مادياً وينتهي إلى التجريد . وتنسجم كل القصص عنه في القرآن لتصوغه شخصية متكاملة يطحنها التفكير الديني . ولكن التوراة على عكس تصوير القرآن تجعله رجل دولة ، وتشكل الأنبياء من إسحق ويعقوب ويوسف ، بل وموسى ، كرجال دولة وأبطال قوميين .

وكلمة نبي بالعبرية تعني شيئاً مختلفاً عما تعنيه الكلمة العربية ، فالنبي بالعربية تعني الإنسان الكامل ، أو ما نسميه في علم التربية « القوة » ، ولكن النبي بالعبرية تعني شخصاً قد تغلب عليه الرذائل ، ولكن فضيلته الوحيدة أنه يقدم لقومه « خدمة » ، فالنبوة عند الإسرائيليين تعني : الشعور بالقومية والانتماء القومي . هكذا كان داود وسليمان وكل الأنبياء . وهذه الحقيقة عبر عنها هـ . ج . ويلز فقال : إن أنبياء إسرائيل كانوا ساسة وليسوا أنبياء بمعنى أصحاب رسالات وبشارات سماوية لخلاص الإنسان بعامه . وأسفار الأنبياء

أسفار رجال دولة يحتالون لخلّاص إسرائيل وإعادة بنائها وبناء الهيكل .

وحول هذه المعنى نفسه اختلف العرب واليهود فى يثرب ، فالمفهوم الإسلامى للنبوّة يصطدم بشكل حاد مع المفهوم المادى لها فى اليهودية . وثمة هذا السؤال : لماذا رفض اليهود المسيح ؟ والجواب : لأنه خرج برسالته إلى الغوييم أى عامة الأمم . وفهم شاوّل الملقّب ببولس الرسول هذا القصور فى اليهودية ، فخرج برسالة المسيح إلى الأمم ، وجاء محمد ليبشر الأمم كافة . واليهود ترفض الغوييم أو الأمم ، وترفض هذا المعنى للنبوّة .

واليهودى بمصطلح التحليل النفسى إنسان متمركز حول ذاته ، يرى أن الله لم يخلق سواه فى الدنيا ، وأنه ملّح الأرض ، وأن الله أسلم له الأمم عبيداً ، ولذلك يتهاافت منطق هارتن بوير ويتناقض مع التوراة حينما يقول بفلسفة الأنا – والأنت ، فالأنا والأنت لا تعرف تفوق أيهما ، ولكنها علاقة سيكولوجية مستقرة المجال ، أى متعادلة الأقطاب ، الأمر المتناقض مع أقوال التوراة عن اليهودى .

ويصف ديجول اليهود (خطاب ٢٧ / ١١ / ١٩٦٧) فيقول « لقد دلّوا على أنهم كانوا دائماً طبقة تريد السيطرة ، وتريد أن تظهر بوصفها الطبقة المختارة . إن إسرائيل تريد التوسع بالحرب » . إذن

هذه فلسفة لا أنا وأنت . هذه فلسفة أنا فقط . فلسفة التمرکز حول الذات . فلسفة أنا غير متطور قد توقف نموه وثبت ، فاليهودي فردي صاحب اتجاهات عملية ، وهذه الاتجاهات والميول المادية العملية هي التي يبرزها كارل ماركس في رؤياه عن اليهودي .

ويشتهر اليهود عبر التاريخ بأنهم أهل مكر وخداع ، وتتكرر حكاية وعد بلفور عبر كل تاريخهم ، فيروى أنهم احتالوا على كوروش وساعدوه على بابل مقابل أن يساعدهم فيعودوا إلى أورشليم ، وتروى التوراة أن كوروش أعطى عزرا « خطاب سلطة ، وأعطاه فضة وذهباً تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه » (سفر عزرا الإصحاح السابع) .

وكأن ما حدث بالأمس البعيد بين عزرا وكوروش ، هو ما حدث بالأمس القريب بين وايزمن ولفور ، وبين إينشتين وترومان : فلقد ساعد اليهود الحلفاء على ألمانيا ، فوطّن الإنجليز اليهود في فلسطين ؛ وساعد اليهود الأمريكيين على المحور ، فكان ترومان أول المعترفين بنولتهم .

وسرق اليهود أسرار القنبلة الذرية ، محتالين لدخول فلسطين ، وكان أوتوهان Otto Hahn قد توصل إلى شطر الذرة في معهد

القيصر فيلهلم فى برلين ، وكانت لينز ميترز مساعدته ، ولم يكن أحد يعرف أنها يهودية وأنها جاسوسة للحلفاء على أهم معامل النازى إطلاقاً ، وفى اليوم الذى توصل فيه هان إلى اكتشافه سرقت مساعدته اليهودية ميترز كل أوراقه وفرت إلى السويد ، ثم إلى الولايات المتحدة . (كتاب ألبرت اينشتين مؤلفه آرثر بيكار ص ١٢٠ طبعة Bard) .

وكان سعى وايزمن للحصول على الوعد المذكور مقابل التجسس على الألمان ، واستحضار أحد المركبات الكيميائية اللازمة للحلفاء ، ومقابل سعى اينشتين ومجموعته للحصول على أسرار الذرة مقابل دعم إسرائيل والاعتراف بها .



ويصك اليهودى مصطلح « المواطن العالمى » ، لأنه لا ينتمى إلى وطن ، ولأنه تاجر ، والتجارة وسيلة عالمية لا تعرف الوطنية ولا الحدود . ولكى يظل اليهودى تاجراً صاغ مصطلح المواطن العالمى ، ولیدعم هذا المفهوم امتنهن الفلسفة ، وعن طريق التجارة فى وسائل النشر والإعلام نشر مفاهيمه التى تبوأت تحريرية ليبرالية ، ولكنها فى الواقع مفاهيم عملية هدفها : دعمه كتاجر ، والتجارة سيطرة اقتصادية : وتقتضى السيطرة على التطورات الاجتماعية والسياسية . وإذن ليس

بمستغرب أن يكون أصحاب الدعوة لما يسمى بالحكومة العالمية " كلهم يهودا .

واليهودى التاجر هو الذى قال فى التلمود ، كتاب اليهود الثانى :
« تاجر بمائة جنيه تاكل اللحم وتشرب الخمر . ضع المبلغ فى الزراعة
تجنى على الاكثر الخبز والملح »
(Rapport,S:Tales and Maxims from the Talmud ص ١٤٧) .



ويقول تولستوى^(١) روائى روسيا الاكبر : إن اليهود يمتلكون
العالم عن طريق التجارة والاقتصاد .

ويقول بوهر : إن اليهودى الجائل هو معنى كلمة عبرى .

ويقول ديورانت : إن يهودى سفر التكوين الجائل هو نفسه
يهودى اليوم الجائل ، وأن اليهود بعد ما كدسوا المال من التجارة ،
تاجروا بالمال واحترفوا استبدال العملات والإقراض بالربا . وثار

(١) ليوتولستوى Tolstoi (١٨٢٨ - ١٩١٠) بدأ حياته عريداً وانتهى زاهداً
صوفياً ، دعا إلى الاشتراكية ولكنها اشتراكية مسيحية ، وهو مؤلف الإخوة
كرامازوف والبعث والحرب والسلام وغيرها من أمهات الروايات العالمية .
(الحفى)

المصلحون على سيطرة اليهود على الاقتصاد ، وعلى سوق المال ، وفرض هنري الثاني ضريبة على المرابين المستغلين بشكل عام ، ودفع اليهود نصف مجموع ما جُمع ، أى أن نصف المرابين فى انجلترا كانوا يهوداً ، أو أن نصف المال الموظف فى الربا كان يهودياً . واضطر الملك جون تحت إلحاح المصلحين إلى سجن كل يهود انجلترا ، حتى النساء والأطفال ، واستولى على أموالهم قبلت ٦٦,٠٠٠ مارك . وصادر هنري الثالث ثلث أموال اليهود ، لأن أرباح الربا كانت الثلث ، فصادر ما أخذوه من الشعب الإنجليزى . وبعد سنتين استولى منهم على ٢٠,٠٠٠ مارك من الفضة ، ثم على ٦٠,٠٠٠ سنة ١٢٤٤ ، وهو ما يوازى كل دخل انجلترا ، وكان يرى أنه بين الحين والحين ينبغى " فصد " اليهود واستخراج ما نهبوه من الشعب البريطانى ، وكان ما ينهبونه يوازى كل سنتين دخل مملكته كلها .

ولم تكن اليهودية لتعنى فى أية لغة سوى : تجميع المال . وظل أحبارهم يلقون على مسامعهم فى صلواتهم ثلاث مرات فى اليوم ، وبعد كل طعام ، وفى أيام السبت والأعياد والصيام : « إلى العام القادم فى أورشليم » (Israel Cohen : A History of Zionism; P.13;) وكوهين مؤلف هذا الكتاب من مؤسسى الصهيونية ، واشترك فى أول

مؤتمر لها في مارس سنة ١٨٩٨ ، وعين بسكرتارية المكتب المركزي للمنظمة الصهيونية العالمية ثم انتخب لمنصب السكرتير العام للمنظمة) .



المسألة اليهودية عند العرب

أصل العرب

الأصول العنصرية للأمم مجهولة . ولم يعرف بعد أن أمة من الأمم جاءت من نسل رجل واحد . وعندما يقال مثلا ، إن الإسرائيليين من نسل سيدنا إبراهيم ، فهو قول فيه مبالغة كثيرة ، ولا يوجد ما يؤيده تاريخيا . وقارئ التوراة يجد أنها تتحدث عن العالم ، وكأنه منطقة الشرق الأوسط التي تنور كالحلقة بصحراء سيناء ، فالعالم كله هو هذه المنطقة ، وكأن الله لم يخلق أقواما ومناطق أخرى ، وكأن الأرض وما حوت ، والسماء والشمس ، كل ذلك لخدمة الإنسان الذي يسكن هذه المنطقة ، وبالذات الإنسان الإسرائيلي .

وهناك تفسيرات كثيرة لحركة التاريخ . ولكننا عندما نقول إن العالم هو الشرق الأوسط ، وأن سكانه هم الإسرائيليون وحدهم ، وأن أباء الإسرائيليين هو إبراهيم ، نكون قد قدمنا : ما يقال له

بالتفسير الدينى لحركة التاريخ ، ونحن هنا نفسر حركة التاريخ بما هو مدون فى التوراة ، وفى التوراة وحدها ، أى أنه :
لا تفسير لحركة التاريخ إلا التفسير الصهيونى !!

والكتب والنظريات التى تناولت الأجناس كثيرة ، ولكن القليل منها هو الذى يستمد آراءه من البحوث العلمية ، ولقد أسهمت البحوث الاشتراكية العلمية أخيرا فى هذا المجال ، بنظريات محايدة فيها الكثير من المنطق والبعد عن الصلف العنصرى^(١) .

وينعقد الإجماع على أن الأصول السلالية التاريخية لأمة من الأمم أمر لا يمكن معرفته ، وكل الذى نعلمه أنه كانت هناك موجات هجرة من مكان إلى مكان ، وأن العالم بأسره تتميز فيه ثلاثة أجناس : هى الجنس المغولى ، والجنس الأوروبى ، والجنس الزنجى . وقد تجتمع فى أمة من الأمم هذه الأجناس جميعها ، كما قد تجتمع فى أفرادها صفات جنسين أو أكثر من هذه الأجناس ، والعبرة كما قلنا بعملية الهجرة المستمرة والغزوات والفتوحات التى تسود العالم وخاصة القديم .

The Races of Mankind by Professor
M . Nesturkh .

(١) مثل كتاب

ومع ذلك فإن التفسير الدينى للتاريخ ، يجد أذناً صاغية له بين بعض الناس ، ومن ثم نجد من يقول ، مثل ابن هشام فى سيرته : أن العرب كلها من نسل إسماعيل وقحطان ، وهو يقصد سيدنا إسماعيل ، وكأن الجزيرة العربية قبل مجئ سيدنا إبراهيم وزوجته هاجر وطفلهما إسماعيل ، كانت خالية تماماً من السكان .

ونجد ابن هشام يقول بعد ذلك مصححاً : إن بعض أهل اليمن يقول ، قحطان من ولد إسماعيل ، وأن إسماعيل أبو العرب كلها^(١) .

ويقول ابن هشام : إن إسماعيل ولد إبراهيم (يقصد سيدنا إبراهيم) من نسل سام بن نوح . وهو يرجع أصل النبی محمد إلى سيدنا إسماعيل وسيدنا إبراهيم .

ويستغل الإسرائيليون أمثال هذه النظرية فى القول بأنهم والعرب أبناء عمومة ، فالإسرائيليون أولاد إسرائيل بن إسحق بن إبراهيم ، والعرب أولاد إسماعيل بن إبراهيم ، فهم جميعاً من صلب سيدنا إبراهيم ... بن سام ، وأن الاثنين ساميان . وبالطبع ليس هناك ما يؤكد هذا التفسير الدينى للحركة التاريخية فى الشرق الأوسط

(١) العرب واليهود فى العصر الإسلامى : الدكتور الخربوطلى ص ١٤ .

سواء في مدلولها السلالي ، أو فيما هو أكثر من ذلك .



اليهود في بلاد العرب

وعلى كل حال ، فلو كانت هذه النظرية صحيحة ، لما كان هناك تعارض ديني بين العرب واليهود في وقت البعثة المحمدية ، لأنه بين حياة النبي محمد ، وبين حياة النبي إسماعيل ، حسب قول ابن هشام ، الذي يستقي من الكتب الدينية - وفي الغالب أنها كتب تستقي من التوراة اليهودية - رغم أن كتبها من المسلمين ، تسعة وعشرون جيلا ، أي نحو ٥٨٠ سنة ، ولا نحسب أن هذه السنين يمكن أن تغير دين إسماعيل وأبيه إبراهيم في شبه الجزيرة العربية إلى ما كان عليه دين العرب وقت البعثة المحمدية من وثنية مطلقة .

ولقد انطلق اليهود بعد تدمير الهيكل في أورشليم إلى جهات متفرقة ، ومنها شبه الجزيرة العربية ، وكان ذلك بعد سنة سبعين ميلادية ، واستوطنوا اليمن في عهد الدولة الحميرية الثانية ، واعتنق ملكها أسعد ابن كرب (٣٨٥ - ٤٢٠ م) اليهودية ، ودعا أهل اليمن إلى اعتناقها . ولكن نجران اعتنقت المسيحية حوالي سنة ٥٠٠ م ، وبدأت

اليهودية والمسيحية تتصارعان على السلطة فى شبه الجزيرة العربية ، وتولى يوسف بن نواس أمر نجران ، وكان يهوديا متعصبا فقتل المسيحيين وأحرقهم بالنار ، وصوّر القرآن هذا الحدث فقال : « قتل أصحاب الأخيود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ^(١) »

وفى الحجاز ، احتل اليهود أخصب الأراضى ، وخاصة فى يثرب وخيبر ، وتحدثوا العربية وتسموا بأسماء عربية ، وظهر منهم شعراء عرب مثل السمؤل بن عاديا ، وكعب بن الأشرف .

واشتهرت منهم قبائل ثلاث ، عرفت بعداؤها للنبي والمسلمين وهى : بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير . وهؤلاء هادنوا قبيلتى الأوس والخزرج العربيتين ، ثم انقلبوا عليهما وحرّضوا الأوس على الخزرج ، ثم تصالح الأوس والخزرج ، وفى هذا الوقت هاجر الرسول إلى يثرب .



(١) سورة البروج الآية (٤ - ٧)

ظهور المسألة اليهودية

وضع اليهود نصب أعينهم ، كمجموعة متحدة المصلحة ، أن يسيطروا على أخصب أراضي يثرب ، وينشروا شبكتهم التجارية على الجزيرة العربية . وكانت حنكتهم التجارية تتحدى عظمة قريش التجارية ، ومن ثم كانت أمانى اليهود أن تتحول أنظار العرب عن مكة التى تستقطبهم بكعبتها ، إلى يثرب مدينتهم . وكان اليهود يتيهون على قريش دينيا ، فقد كانت قريش عبدة أصنام ، أما اليهود فكانوا مؤحدين .

وعندما دخلت المسيحية الجزيرة العربية هددت سيطرة وتفوق اليهود الدينى ، وبدأ نزاع مرير قتال بين الديانتين ، ثم ظهر الإسلام فتصدت له الديانتان معا ، حتى أنه لشدة مقاومتهما للإسلام والمسلمين ، نزل قول الله « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ^(١) .

وتصدى اليهود للدعوة ، اتهموا الإسلام بأنه مأخوذ ، نصاً وروحاً ، من اليهودية ^(٢) ، وأن الشريعة المحمدية هى الشريعة

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠ .

(٢) أنظر كتاب موسى والتوحيد لسيجموند فرويد ، ترجمة الدكتور عبد المنعم الحفنى

الموسوية ، ونزلت الآية « سيقول السفهاء من الناس ، ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس » ^(١) ، ومعنى « أمة وسطا » أمة معتدلة ، لا تنكر الأنبياء ، ولا شريعة موسى ولا عيسى ، حيث يقول القرآن « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ^(٢) .

وقابل اليهود هذا الدين بالسخرية ، وبالقوية بين المهاجرين والأنصار ، وأيدوا قريشاً على محمد ، وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش في غزوة بدر ، ويؤلبون قريش على المسلمين ، ويثيرون حفيظتهم ضدهم ، حتى أنشد شاعر اليهود ، كعب بن الأشرف ، القصائد في هجو المسلمين وحض القرشيين على الأخذ بالثأر ، وتمادى حتى جرؤ على أن يفعل فعلته في المدينة نفسها ، وفي حضور المسلمين ، وأغضب عمله الرسول فقال قوله « من لى بابن الأشرف ؟ » فما هي

(١) سورة البقرة الآية ١٤٢ و ١٤٣

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

إلا أيام حتى دفع كعب حياته ثمناً لقصائده ، وقتله الأنصار من قبيلة الأوس^(١) .



بنو قينقاع

كانت قبيلة بنى قينقاع تسيطر على شمال الحجاز ، وكانت أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع مع الرسول ، إذ كان الرسول قد جعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً فنقضوا العهد^(٢) ، ونزلت الآيات تخاطب الرسول « ولما تخافن من قوم خيانة ، فانذروهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » (الأنفال ٥٨) ، فجمعهم الرسول في سوق بنى قينقاع وقال « يامعشر اليهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل موقعه قريش ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » ، فقالوا « يا محمد ، لا يغرنك من لقيت ، إنك قهرت قوماً أغماراً ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقا تل مثلنا »^(٣) .

ثم حدث ما أثار غضب الرسول على بنى قينقاع ، فكان هذا

(١) الخربوطلى ص ٣٧

(٢) ابن سعد كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ٦٨

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦

الحدث شرارة الحرب ، فقد قَدِمَت امرأة تباع أشياء لها في سوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبَت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ففقدته إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ، فحاصروهم رسول الله حتى نزلوا علي حكمه ^(١) ، الذي تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له ^(٢) ، وتكون النساء والذرية لهم ، ثم أخلى سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبي ، وأمرهم بالجلء عن المدينة ، فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات بآطراف الشام قبل الحجاز .



بنو النضير

فرح اليهود لهزيمة المسلمين في أحد ، فجعلوا يغدرون بالمسلمين ، وقتلوا أربعة من رُسُل رسول الله إلى مدينتي عضل والقارة ، عندما

(١) ابن هشام ص ٤٢٧ ج ٢ ، وإرفنج : حياة محمد ص ١٥٨ ترجمة الخربوطلي .
(٢) الخربوطلي .

مر هؤلاء بمنطقة الرجيع من أرض اليهود في طريقهم إلى المدينتين السابقتين^(١). ثم تكررت الحادثة عند بنر مؤتة ، عندما هاجموا الأربعين من قرأء المسلمين الذين كانوا في طريقهم إلى نجد ، وقتلهم إلا واحداً هرب إلى المدينة ، وفي طريقه إليها التقى يهوديين غير مسلحين ، فقتلها ظناً منه أنهما من بنى النضير . وكان اليهوديان من بنى عامر ، فطلبت بنو عامر الدية ، فأمر الرسول بأن تدفع بنو النضير لبنى عامر ، وهم يهود أيضاً ، دية الرجلين ، وتوجه الرسول إلى اجتماع ببني النضير ، يصحبه أبو بكر وعمر وعليّ وبعض من المسلمين ، وجلس الرسول إلى جنب جدار من بيوت بنى النضير ، في انتظار أن يأتوه بالمال ، ولكن بنى النضير كانوا قد اتفقوا على أن يقوم واحد منهم بإلقاء حجر على الرسول من سطح المنزل الذي يجلس أسفله ، فيقتله .

وأثارت المؤامرة غضب الرسول على بنى النضير ، فطلب إليهم الجلاء عن المدينة ، وحاصروهم حتى طلبوا الصلح والرحيل ، وهاجر معظمهم إلى مدينة خيبر اليهودية الحصينة ، على مسيرة أيام من المدينة .



(١) الخربوطلى ص ٤٠ واليعقوبى ج ٢ ص ٣٨

بنو قريظة

ولم يبق في المدينة ، بعد جلاء بني النضير ، سوى بني قريظة ، وهؤلاء نقضوا عهدهم مع الرسول بتحالفهم مع المشركين في غزوة الأحزاب أو الخندق ^(١) ، وأسقط في يد الرسول ، فقد كان عليه أن يصد القرشيين وحلفاءهم عن عبور الخندق ، وأن يتجنب هجوم بني قريظة في المدينة ، واحتال حتى جلت قريش عن الخندق ، فالتفت الرسول إلى بني قريظة ، وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه .



يهود خيبر

كانت خيبر شديدة الثراء ، وكان لليهود فيها حصون ، لجأ إليها اليهود المهاجرون من المدينة ، وجرّد لهم الرسول جيشاً وفتح خيبر ، واتفق مع يهودها أن يبقوا في أرضهم يزرعونها مناصفة ، النصف للمسلمين ، والنصف لليهود . وسمع يهود « اللدك » بمعاملة الرسول الحسنة لليهود خيبر ، فطلبوا صلحاً مثل صلح خيبر .



(١) الخريوطي ص ٤٢ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٩

الحل الإسلامي للمسألة اليهودية

حلّ الرسول المسألة اليهودية في الدولة العربية ، بأن أوجد ، لأول مرة ، في تلك الدولة ، ما يسمى بأهل الذمة ، وسمح لهم بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضيهم ، وفق ما يأخذ عليهم من شروط . وقضى الرسول على المسألة اليهودية : بأن قضى على فردية اليهود التي كانوا يتبنونها بها على العرب ، بأن جعلهم : رعايا في الدولة العربية الإسلامية ^(١) ، وتمتعوا فيها بالحرية مقابل أداء الجزية والخراج . ولأول مرة يحكم رؤساء اليهود في شئونهم ، وكان ذلك في الدولة الإسلامية ، وسمى رئيسهم رأس الجالوت ، وكان البستاني هو أول رأس جالوت تولى شئون اليهود في العصر الإسلامي ، وكان موضع تقدير من عمر بن الخطاب ^(٢) .

ويبرز المؤرخ « تروتون » تسامح المسلمين مع اليهود ، فيقول : إن يعقوب بن إسحق الكندي ، لم تمنعه يهوديته من أن يحترمه المسلمون ويعدونه من الفلاسفة المبرزين حتى قرّبه الخليفة المأمون من مجلسه وصار طبيبه ^(٣) .

(١) الخربوطلي ص ٤٥ وجمال سرور قيام الدولة العربية ص ١٢٠

(٢) الخربوطلي ص ٥٧ ويوسف رزق الله نزهة المشتاق ص ١٠١

(٣) الخربوطلي ص ٦١

وفى العصر العباسى الثانى تولّى وظيفة رأس الجالوت ، ورئيس اليهود ، فى كل البلاد الإسلامية ، دانيال بن حسدان ، وكان المسلمون يسمون دانيال « سيدنا ابن داود » ، وكان المسلمون واليهود على السواء يقفون إجلالاً له إذا كانوا بحضرته ، ومن لم يقف له ضُربُ مائة سوط ، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس ، وإذا كان يصيح أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين : أفسحوا الطريق لسيدنا ابن داود . وكان دانيال ، إذا جاء إليه الخليفة ، قبل يديه ، وكان دخله من الضرائب المفروضة على اليهود مائتى ألف دينار ^(١) .



وكان اليهود يعيشون حياة التسامح فى العصر العباسى ^(٢) ، وكان معظم الصيارفة وأصحاب المصارف فى الشام من اليهود ^(٣) . وتولّى الخليفة المعتضد المناصب لكثير من اليهود . وكانت لهم مستعمرة كبيرة فى بغداد ، ظلت قائمة حتى سقطت المدينة فى أيدي المغول ، ووجد بنيامين التطيلي ، الذى زارها سنة ١١٧٠ م ، أن بها عشر مدارس

(١) الخربوطلى ص ٦٥ والمسعودي : التنبيه ص ١١٣ ، وويل ديورانت قصة

الحضارة الجزء الرابع ص ٣٦٦

(٢) دكتور فليب حتى : تاريخ العرب .

(٣) المقدسى .

ربانية ، وثلاثة وعشرين معبداً . وتُرجم العهد القديم إلى العربية في عهد هارون الرشيد ، وتُرجم مرة أخرى في عهد الخليفة المتوكل .



وحاصر الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩ م حتى سقطت في أيديهم ، فتجمع اليهود في المعبد ، وأحرقهم الصليبيون داخله حتى فنوا عن بكرة أبيهم . وعندما عاد المسلمون إلى القدس بقيادة صلاح الدين ، كان عهده عهد خير على اليهود . وعندما طردت إنجلترا وفرنسا ثلاثمئة من رعاياها اليهود ، رحب بهم الملك العادل أخو صلاح الدين . وكان طبيب صلاح الدين الخاص « الميموني » يهودياً .



وازدهرت اليهودية في عهد الإسلام بشكل لم تعرفه في أي من بلاد الغرب ، وكانت لها جامعتان في صور وبومبيدثا ، وتأسست بهما الطريقة الجاونية في اليهودية . وفي سنة ٧٩٢ صار « عنان بن داود » حاخام أكبر على كل يهود المشرق ، ولكن الجامعتين العبريتين رفضتاه فهرب إلى فلسطين ، وأقام معبده الخاص ودعا اليهود إلى نبذ تعاليم التلمود والاكتفاء بالأسفار .

واحْتَجَّ عنان على التغييرات التي أحدثها الحاخامات في الأسفار تبعاً لما يرتأونه من تفسيرات يسقطونها على معانيها ، ومن ثم تسمى أتباعه باسم اليهود القرائين . من فعل قرأ ، أى أنهم يدعون إلى العودة إلى قراءة الأسفار .

وقال عنان عن المسيح أنه من أهل الله الذين كانوا يرون نبذ القانون المكتوب لموسى والالتصاق بالقانون الشفاهى للكتابة والفريسيين . وقال عنان عن المسيح إنه لم يكن يرمى إلى إقامة ديانة جديدة ، ولكن إلى تنقية اليهودية وتقويتها .

وانتشر اليهود القراءون في فلسطين ومصر وأسبانيا ، ولكن حركتهم ضعفت ، وانتهت في القرن الثانى عشر ، رغم أنه ما يزال بتركيا وجنوب روسيا بقاياهم .

وكان من الواضح أن الحركة القرائية قد تأثرت بالمذاهب الإسلامية في القرن التاسع ، بينما التزم السنية في اليهودية بنفس الخطوط الفكرية التى كانت للسنية في الإسلام ، ووسط هذا الجو الفكرى الحر والثّر معاً ، قام أول فيلسوف يهودى ، وهو سعديا بن يوسف الفيومى الذى ولد بقرية ديلاز من أعمال الفيوم سنة ٨٩٢ ، وتربى في مصر ، وتزوج فيها ، وهاجر سنة ٩١٥

إلى فلسطين ثم إلى بابل ، وصار مديراً لجامعة صور ، ثم أخذ يدلي بدلوه في المعركة بين الشيعة والسُّنة في اليهودية ، وكان دوره دور المتكلمين في الإسلام ، وقضى خمسين سنة يكتب بالعربية غالباً ، وكتب « كتاب اللغة » عن النحو العبري ، وعرب التوراة ، وعلّق عليها ، وكانت له كتب كثيرة في الديانة واللاهوت اليهوديين ولم يحد من هذا الازدهار اليهودي إلا اكتساح المغول لبغداد سنة ١٢٥٨ م ^(١) .



سارتر والمسألة اليهودية

في سنة ١٩٤٤ كتب الفيلسوف الفرنسي جان پول سارتر ^(٢)

The Story of Civilization : Will Durant, Vol.IV, P.366 ^(١)
^(٢) جان پول سارتر : فيلسوف وكاتب فرنسي ، ولد في باريس سنة ١٩٠٥ ، وهو أشهر كتّاب هذا العصر قاطبة ، وثاني فيلسوف بعد مارتن هيدجر . وسارتر أبو الوجودية الملحدة ، له مسرحيات ترقى إلى مستوى مأسى شكسبير ، وتتساوى مسرحيته الأبدى القذرة مع هملت شكسبير في الروعة والعظمة المسرحيتين ، وروايته الغثيان تعتبر رائدة الرواية الجديدة ، وهو مبدع أدب المواقف . وعرف سارتر عموماً بأنه منشد الحرية في العالم ، لذلك فقد ناصر كل قضايا الحرية ، ولا ريب أن مناصرته للمسألة اليهودية في بلاده وأوروبا أمر له مبرراته ومسوغاته ، ولكن فهمه للقضية الفلسطينية تأثر بانحيازاته الواضح لليهود . ولم يشفع له أن خصص نصف أحد أعداد مجلته « العصور الحديثة » لكتّاب يدافعون عن القضية الفلسطينية . (الحفنى)

مقالا بعنوان « حول المسألة اليهودية » Réflexions sur la question juive ، وكتب فيه عن موقف اليهود في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ، ولنذكر أن سارتر يكتب عن موقف مرتبط بزمان ومكان ولا يكتب عن مشكلة أبدية ، ثم لاحظ كيف هبط مفكر كبير كهذا إلى أن تستهويه الدعاية اليهودية فيردها بالكامل ، والوقائع التي يطرحها سارتر طرحها غيره من قبل ، ولكن كلاً عالجهما بطريقة بحيث تاهت الدعاية اليهودية على القارئ ، إلا أن سارتر لا يخفى الدعاية اليهودية ، ويطرحها كاملة كوجهة نظر له ولسوف نرى ذلك جيداً في مقاله .

وأسقط سارتر الإحصاءات والتاريخ وتحدث إلى الفرنسيين عن مسألة لا تخصهم ولكنها تخص اليهود ، وقال إن اليهودى اضطهد ومن ثم انصرف إلى اعتراف مهن اضطُر إليها ، كأن يشبّه اليهودى بامرأة بغى ، لم تجد من يعولها فاحترفت البغاء ، ونسى أنه كان أمامها مئات من المهن ، وأنها باختيارها للبغاء إنما كانت تختار أقرب المهن وأحبّها إلى نفسها .

واليهودى اضطهد - هكذا يقول سارتر - ولكن لماذا اضطهد أصلاً ؟

وهو قد احترف الربا فى زعمه مضطراً ، فماذا لو كان الربا اختراعاً يهودياً لم تعرفه المجتمعات القديمة إلا من خلال اليهود ؟ ولقد رأينا أن انجلترا فى القرن الثانى عشر كان نصف المرابين بها من اليهود . وفى مجتمع المدينة لم يكن المرابون سوى يهود .

وينكر سارتر المسألة اليهودية ويقول أنها غير موجودة فى فرنسا لأن اليهود أرادوا الاندماج فى المجتمع الفرنسى ، ولكن توجد مسألة فرنسية لأن المجتمع الفرنسى هو الذى يرفض اليهود .

فماذا عن يهود الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ؟ ماذا عن رفضهم الانتماء واتجاههم إلى الهجرة ؟ وماذا عن الجنسية المزدوجة لليهودى ؟

المجتمع السوفيتى امتصهم لا بوصفهم بشراً ، ولكن بوصفهم المتعین ، أى بوصفهم سوفيت يهوداً ، ومع ذلك رفض اليهود الامتصاص .

ويقول سارتر إن العداء للسامية سمة البورجوازية دون غيرها ، وأنها سمة موروثة مع الثروة والعقارات ، ومن ثم لا تريد البورجوازية أن تفكر لنفسها ، وإنما هى تفكر بعقلية السلف .

وأقول إن سارتر يفكر بعقلية اليهودى ويطرح آراء وأفكاراً يهودية . ويقول إن اليهودى قيمة عالمية لأنه يفكر بطريقة عالمية :

طريقة التاجر العملية ، وكل ما قال المفكرون أنه عار لليهودى جعله سارتر عظمة اليهودى .

وينكر سارتر فى فلسفته وجود طبيعة عامة للبشر ، فنحن نولد ثم نتحدد ماهيتنا من بعد ، ومن ثم تتكون لكل منا طبيعة خاصة به ، وبناءً عليه فلا وجود لما يسميه العنصريون صفات عامة لليهود أو الزواج .

ويقول : إن كل إنسان موضوع فى موقف خاص به ، بمعنى أن الإنسان وحدة تركيبيه مع موقفه - وحدة بيولوجية ثقافية اقتصادية سياسية إلخ . واليهودى إنسان يميزه موقفه .

ويقول : إنه لن ينكر أن هناك جنساً يهودياً ، بل أن هناك أجناساً يهودية من جنس واحد ، فيهود الروسيا شقر ، ويهود الجزائر جعد الشعر .

ويقول : إن المعادى للسامية يتقزز من اليهودى دينياً ، مما اضطر اليهودى لاحتراف مهن ملعونة من الكنيسة ، فهو قد جُرد من حق امتلاك الأرض الزراعية ، أو العمل فى الجيش ، ومن ثم تاجر فى المال ، لأن التجارة فى المال لا يمكن أن يقبلها المسيحى ، وهكذا تدّعمت اللعنة الأولى بلعنة اقتصادية .

فما قول سارتر فى الوضع قبل المسيحية : فى مصر وفى العراق
وفى فارس ؟ وما قوله فيما ورد فى الأناجيل عن التجارة فى المعابد
والتعامل بالربا حتى اضطر المسيح إلى طرد التجار من المعبد ؟؟

ويدعى سارتر أن المجتمع المسيحى هو الذى خلق مشكلة
اليهودى ، وأجبره على مزاوله مهنة التجارة ، فما شأن تعاليم
التلمود - أكانت بعد المسيح أم قبله ؟

ويقول سارتر إنه بدلا من أن يسأل المسيحى من هو اليهودى ،
كان ينبغى أن يسأل نفسه : ماذا فعلتُ باليهودى ؟

وهكذا يخلط سارتر بين التاريخ وبين الموقف ، ويقع فريسة
صريحة للدعاية اليهودية .

ويقول سارتر : إن المعادى للسامية على حق عندما يقول إن
اليهودى يأكل ويشرب ويقرأ وينام ويموت كاليهودى ، فما هو الشئ
الآخر الذى يستطيع أن يفعله ؟



ولنتأمل ما يقوله آرثر ميللر الكاتب اليهودي ، ففي قصة له بعنوان It Takes a Thief ينظر بطله برنشتين اليهودي إلى شخص يجلس في مقهى ثم يصيح في زميله أبييلو : أبييلو ! أنظر إلى الرجل هناك ، إنه يهودي . أنا أعرفه من طريقته . هذه الطريقة هي طريقة اليهودي !!

ميللر يرى أن اليهودي يهودي ولا يمكن أن يكون إلا يهوديا ، لأن ثقافته لا تند إلا هذا النمط من السلوك .

لكن سارتر يقول إن السلوك رد فعل للمعاملة المسيحية . سارتر أحق وأرق على اليهود من اليهود على أنفسهم !

وفي الوقت الذي يصرفيه اليهود على أن تكون لهم ثقافتهم ويرفضون أي ثقافة أخرى خلاف ثقافتهم ، الأمر الذي يترتب عليه أن يكون لهم سلوك خاص تصنعه هذه الثقافة ، يرى سارتر أن نمط السلوك اليهودي مرده نمط السلوك المسيحي وليس الثقافة اليهودية !

ويرى شتيكل عالم النفس اليهودي : أن هناك عقدة نقص يهودية ، ولكن سارتر لا يرى رأى شتيكل اليهودي . سارتر يرى أن اليهودي الذي يريد أن يزيغ نفسه ليعيش كالآخرين هو وحده الذي يملك عقدة النقص اليهودية ، ولكن اليهودي الذي يحيا حياته ،

كـيهـودى ، لا عقـدة نقص عنـده !

ويزعم سارتر أن المعادى للسامية ، هو الذى يخلق المسألة اليهودية ، وأن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو الاندماج - اندماج اليهود فى مجتمعاتهم - والمعادى للسامية يرفض الاندماج !!

وكأن اليهودى نفسه لا يرفض الاندماج ! فماذا بشأن المهاجرين من الاتحاد السوفيتى وبلدان أوروبا الاشتراكية ؟ هل هناك عدااء للسامية مع أن الدولة علمانية وضد الدين ، وخصوصاً الدين المسيحى بالذات ؟

ولا يرى سارتر مع ذلك أن الحل الصهيونى هو الحل الأمثل ، رغم أنه لا يرفضه تماماً وصراحة ، ويرفض أن يقوم اليهود بتغيير ثقافتهم ودينهم ، وأن يتوقفوا عن الاختتان . ويقول إن نابليون كان يفكر فى شئ من ذلك . وينكر سارتر على نابليون هذا التفكير ، لأنه تضحية بالفرد اليهودى لمصلحة الجماعة المسيحية، ولا يوجد نظام ديموقراطى يسعى إلى دمج اليهود بهذا الثمن !

ويجد سارتر نفسه فى نهاية المطاف قد وقع صريع الدعاية اليهودية والتحليل الزائف ، فيرجع إلى رأى ماركس ، وهو كثيراً ما يسرق آراء ماركس ، ويرجع العدااء للسامية إلى نظام الملكية ، وأنه لولا

وجود المجتمع الطبقي لما وُجدَ العداء للسامية .

ما صلة هذا بذاك ... لا أدري ؟ ولكنه لطش فكرة ماركس ، وأفكار ماركس هي نتائج لاستخدام المنهج الجدلي في مناقشة القضية . وأما النتيجة النهائية التي يوردها سارتر فغير متفقة مع منهجه ومع مقدماته .

ويقول سارتر إنه إلى أن يقوم مجتمع يتخلص فيه الإنسان من هلوسات العالم القديم الموروثة - مجتمع يقوم على امتلاك وسائل العمل ملكية جماعية ، وينكب فيه الإنسان بكل قلبه على مشروعه ، وهو خلق مملكة الإنسان ، حتى هذا الحين ستظل المشكلة اليهودية بلا حل .



المسألة اليهودية والنازية

الحزب النازي هو الحزب الاشتراكي الوطني ، وكانت مبادئه جمع الألمان في مختلف أراضي أوروبا وإنشاء ألمانيا الموحدة ، ومشاركة الدولة الألمانية في ملكية وسائل الإنتاج ، والاشتراك مع الطبقة البورجوازية والقطاع الخاص في إقامة نظام اقتصادي وطني يكفل للدولة موارد مالية تنفق منها على خلق جيش قوى وطني يحقق آمال

الشعب الألماني في السيادة ، وآمال البورجوازية في الغزو والفتح .

ومع أن أدولف هتلر مؤسس الرايخ الثالث هو حامل لواء النازية فإنه أخذ الفكرة عن جورج ريتزلون شوينر مؤسس الحزب القومي لكل ألمانيا .

والدعوة عنصرية ، ولذلك كان صدامها شديداً بدعوة عنصرية أخرى على مستواها تماما ، فهذه تقول بتفوق الجنس الأري ، وتلك تقول بتفوق الجنس اليهودي .

وكانت دعوة ألمنة (أى جعله ألمانيا محضاً) الاقتصاد ومشاركة الدولة في الملكية مصادما لدعوة حرية التجارة والحكومة العالمية اللتين يقول بهما اليهود . وكان الصدام حتما بين الدعوتين لسيطرة اليهود تماما على الاقتصاد الألماني ووسائل النشر والمصارف الكبرى .

وكان الحزب القومي الألماني أول من نحت مصطلح « اليهودية العالمية وحكومتها الخفية » ، وهو الذي فضح « بروتوكولات حكماء صهيون » ونشرها على العالم أجمع ، وكان كتاب هتلر « كفاحي » أول منشور سياسي ينتحل دعوة العدا للسامية . وبدأ نزوح اليهود عن وسط أوروبا إلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

وكان **چورچ ريترفون شوينر** مؤسس الحزب القومى لكل ألمانيا هو الذى فتح نوافذ هتلر الذهنية لخطر اليهود ، وهزت دعوة **كارل كروجر** كيانه من أساسه ، وكان كروجر يطالب بطرد اليهود من كل أوروبا ^(١) .

وكان هتلر يرى « أن غريزة حب البقاء وحفظ النوع » ^(٢) وراء كل حدث من أحداث التاريخ ، ولكن الشعوب الآرية لم تتفوق على شعوب الأرض بسبب قوة هذه الغريزة ، بقدر ما كان تفوقها بسبب الشكل الخاص الذى تجلّت فيه ، فالرغبة فى الحياة أو حب البقاء نزعة غالبية لدى البشر كلهم ، أما الفروق فهى تظهر فى حيز التطبيق .
يقول هتلر :

« ليس فى عالمنا شعب نمت فيه غريزة حب البقاء وتبلورت كالشعب الذى يسمى نفسه « الشعب المختار » ، ولسنا نجد دليلاً نسوقه على صحة هذا القول من بقاء هذا الجنس ومحافظته على طابعه وخصائصه ، وهو الذى واجه خلال ألفى عام ظروفًا قاسية .

The Rise and Fall of the Third Reich by William (١)
Shirer, P. 57,

(٢) كفاحى أدولف هتلر ص ١٥ .

ويقول :

« ولقد رأينا اليهود يدخلون أنوفهم فى قضايا العالم الكبرى ،
وكانت لهم يد فى كل ثورة ذات طابع انقلابى » .

ويقول :

« يصفون اليهودى فى أيامنا بأنه مكر بل داهية ، وقد كان هذا
شأنه ، إلى حدما ، فى كل وقت . بيد أن ذكاءه ليس وليد تطور ذاتى
أو داخلى ، فقد نما وتطور بفضل نتاج عقول الآخرين ، ولا
ننسى أن العقل البشرى نفسه لا يبلغ درجة الازدهار دفعة واحدة ،
ففى كل خطوة يخطوها لابد له من الاستناد إلى الأسس التى خلفها
له الماضى ، أى إلى معالم الحضارة العامة ، ومن هنا النظرية القائلة
إن الفكرة هى وليدة تجارب متراكمة منذ مئات السنين قبل أن تكون
ثمرة الاختيار الشخصى . فمستوى الحضارة العامة يزود الفرد
بمعلومات أولية يتسلح بها فى محاولته الكشف عن أسرار قِصر عن
اكتشافها الذين تقدموه » .

ويقول :

« ليست لليهودى حضارة خاصة به ، فأسس عمله الفكرى
مستعارة ، أخذها من الذين أوجدوا الحضارات . ولئن تكن غريزة حب

البقاء عنده أقوى من أى جنس آخر ، فالشرط الأول الذى يجعل من شعب ما شعباً ذا حضارة ، ليس متوفراً فى « الشعب المختار » ، إذ ليس لليهود مثالية ، وذلك أن روح التضحية لا تتعدى عند الشعب اليهودى نطاق « الأنا » . والتضامن الذى يقوم بين اليهود والذى يبدو لنا وثيقاً ليس أكثر من تجمع أنى شبيهه بتجمع قطيع من الغنم لمواجهة الخطر المشترك ، أو بتجمع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة ، فما أن تنتهى الوليمة حتى يتفرق المدعوون . واليهودى لا يعرف معنى التضامن إلا فى حالات مماثلة ، فروح التضحية لا تتجلى ما لم يشعر كل فرد بأنه مهدد . والتضامن يصبح واجباً فى حالتين : حيال عدو مشترك أو فريسة مشتركة . فإذا انعدم الحافز تكون الأنانية هى الطابع الغالب ، ويصبح هم اليهود أن يكيد بعضهم لبعض وأن ينهش بعضهم بعضاً .

« وليست للشعب اليهودى إذن حضارة حقيقية خاصة به ،
فالحضارة اليهودية ، أو التى تبولنا كذلك ، هى ملك شعوب أخرى
تلقفها « الشعب المختار » وشوّه أكثر معالمها .

« ولكى ندرك وضع اليهود حيال الحضارة البشرية ينبغى لنا أن
نضع نصب أعيننا الحقيقة الآتية : لم يعرف العالم قط شيئاً اسمه
« الفن اليهودى » ، وليس لليهود أى فضل على الفنانين الأعظمين :

الموسيقى والهندسة . وإنتاجهم فى حقل الفنون ليس سوى نقل أو تقليد أو سرقة ، وليس أدل على صحة هذا القول من تسابق الكتّاب اليهود إلى تعهد الفن الذى لا يتطلب إلا اليسير من الابتكار ، أعنى الفن المسرحى . وحتى فى هذا الحقل يظل اليهودى مقلداً شأنه شأن القرد ، وهل يُنتظر ممن يعجز عن الإبداع ، أن يخلقه مجارياً للعباقرة ؟ ولكن الصحافة اليهودية المضلّة لا تأل جهداً فى سبيل رفع حثالة الفنانين اليهود إلى مصاف سادة الفن ، فتراها تكيل المديح للمقلدين من أبناء « الشعب المختار » لتدخل فى روع الجمهور أنه أمام عباقرة حقيقيين .

« وليست لليهودى إذن القدرة على الخلق والإبداع ، وليست له بالتالى القدرة المثالية التى بدونها لا يمكن أن يتطور الإنسان ويرتقى . أما ذكاؤه فإنه ينزع دائماً إلى الهدم والتخريب . وفى بعض الحالات النادرة يفعل اليهودى الخير وهو يحسبه شراً فيكون قد ساهم فى خدمة البشرية ، ولكن بالرغم منه .

« ومن الخطأ أن ننظر لليهود نظررتنا إلى قوم من الرُّحَل ، لا لشيء إلا لأنهم يفتقرون إلى مملكة ذات حدود معينة ، ولأن العالم لم يعرف شيئاً اسمه « حضارة يهودية » ، فالرُّحَل يملكون أرضاً ذات تخوم يعيشون عليها بعض الوقت ولكنهم لا يتعهدون الأرض كما يفعل

المزارعون ، بل يعتمدون في غذائهم على نتاج الماشية . ويملى على الرُّحْل هذا الطراز من المعيشة ، كون الأرض التي فيها ينزلون ضئيلة الخصب ، لا تشجّع على الإقامة الدائمة . ولو كان الرُّحْل من الجماعات المتطورة لاستطاعوا أن يستتبتوا التربة بما تعجز من تلقائها عن إعطائه ، وهو ما فعله الآريون بفضل تكتيكهم المتفوق ، فقد أنشأوا مؤسسات ثابتة واستغلوا أراض واسعة كانت مواتا . ولولا تكتيكهم وعبقريتهم الخلاقة لظل شأنهم شأن الرُّحْل لا يقر لهم قرار . ولا ننسى أن الآريين الذين هبطوا أمريكا عاشوا ردحا من الزمن وكأنهم رُّحْل حقيقيون ، ولكن ما أن أسلست لهم الأرض قيادها حتى بدأوا يتجمعون في مناطق معينة ، وسرعان ما كانت منشأتهم الثابتة ناطقة بقدرتهم على الخلق .

« ويبدو أن الآريين كانوا في البدء رُّحْلًا ، ثم استقروا حيث هم . أما اليهود فليسوا رُّحْلًا ، لأن للرُّحْل مثالية أو شيئا من جوهر المثالية يجعلهم غير بعيدين عن الآريين ، وإن تكن طبيعتهم غير طبيعة هؤلاء . وإذن فلم يكن اليهود رُّحْلًا قط ، بل كانوا ولا يزالون طفيليات تزاخم الشعوب على مقومات وجودها ، ولئن هجروا مناطق كانوا قد استوطنوها مئات السنين ، فقد هجروها مرغمين ، تشجيعهم لعنة الشعوب التي هبّت تطردهم بعد أن برمت بهم وبخروجهم

على آداب الضيافة .

« أين هذا من تنقل الرُّحْل الذين يهجرون مكانهم من تلقائهم ؟ إن اليهودى لا يفكر مطلقا فى ترك مكان هو فيه ، وإذا اضطُر للانتقال إلى مكان جديد ، فإنه يختار مكانا يؤمِّن له أسباب البقاء دون أن يتخلّى عن طابعه الخاص ، فهو طفيلى هنا كما كان طفيلياً هناك ، وبديهى أن يكون له حيثما وجد التأثير الذى للنبذة الطفيلية : فحيث يستقر اليهودى لا يلبث الشعب الذى فتح له ذراعيه أن يتلاشى ويضمحل .

« وهكذا عاش اليهود فى كل عصر ومصر . عاشوا عالة على الشعوب الأخرى ، وكانوا يؤسسون دولتهم الخاصة ويخفونها خلف قناع من « الجماعة الدينية » ما دامت الظروف لا تسمح لهم بفضح أهدافهم الحقيقية . أما إذا أنسوا من أنفسهم القوة على نزع القناع فإنهم يكشفون عن وجوههم الحقيقية .

« وتقوم علاقة اليهود بالشعوب التى يفعلون فيها فعل الطفيليات بالجسم، على الكذب والتدجيل . ألم يقل شوينهور إن « الشعب المختار » هو الأستاذ الأعظم فى فن الكذب ؟ وإقامة اليهود بين الشعوب لا يمكن أن تستمر ما لم يتوصلوا إلى إقناع الناس بأنهم

« جماعة دينية » لا أكثر ولا أقل . ولكن هذا الادعاء هو إحدى كذباتهم الكبيرة .

« لم يكن اليهود في وقت من الأوقات مجرد طائفة دينية لها تقاليد وطقوسها الخاصة ، بل كانوا دائما شعباً له خصائصه ، وقد بحثوا بعد تشردهم عن وسيلة يضللون بها الشعوب فلا تتبرم بـ « ضيوفها » المزعجين ، فما وجدوا أفضل من تقديم أنفسهم بأنهم جماعة دينية لا أكثر ولا أقل ، مع العلم بأن « الشعب المختار » كان في هذا الحقل ناقلاً ومقلداً ومشوهاً ، وذلك أن اليهود لا يمكنهم أن يؤلفوا منظمة دينية لأنهم لا مثالية لهم ، ولأنهم لا يتطلعون إلى ما وراء عالمنا هذا ، فالتمود لا يشير بكلمة إلى العالم الآخر .

« إن العقيدة الدينية اليهودية تشتمل على توجيهات بعضها يتعلق بحفظ الدم اليهودي نقياً ، وبعضها الآخر ينظم العلاقات بين اليهودي واليهودي ، والعلاقات بين الشعب المختار « وسائر الشعوب » ، ولكنها لا تنظمها على صعيد أخلاقي . وكما قد يتبادر إلى الذهن للدولة الأولى ، فهي تعالج المسائل الاقتصادية بنوع خاص ، ولكنها تعالجها وبروح تفضح الدناءة التي فطر عليها اليهود . أما القيمة الروحية للتعاليم الدينية اليهودية فالدروس التي تناولتها بالبحث ، والتي جعلوها متمشية مع أهدافهم ، تعطى عنها فكرة ليست في مصلحة الديانة

اليهودية . ويعطينا اليهودى نفسه الدليل على بُعد ديانتَه عن الروحانيات ، فحياته تقوم على المادة ، وروحه كانت ولا تزال غريبة عن الروح المسيحية . ولا ريب فى أن مؤسس النصرانية لم يظلم اليهود عندما أبدى فيهم رأيا صريحا ، ألم يستخدم السوط فى إخراج عذو البشرية من الهيكل لأن اليهودى كان ولا يزال يعتبر الدين تجارة ؟ ولأن المسيح حارب المادية اليهودية صلبه اليهود . أليس من المخجل أن يستجدى اليوم الحزب المسيحى فى بلادنا أصوات اليهود فى الانتخابات ، وأن ينظم الدسائس ويحرك المؤامرات ضد الوطنين بالاشتراك مع الحزب اليهودى الملحد ؟ ^(١) .

« وعلى الكذبة الأولى القائلة إن اليهود ليسوا جنساً بل طائفة أو جماعة دينية قامت سلسلة من الأكاذيب الخطيرة ، مثل كذبتهم فى مسألة اللسان الذى به يتكلمون ، فهو واسطة لإخفاء حقيقة ما يجول فى رؤسهم بدلا من أن يكون واسطة للتعبير عن آرائهم ، فاليهودى إذ يخاطبك بالفرنسية مثلا إنما يفكر كيهودى ، وعندما ينظم الشعر بالألمانية فاعلم أنه يعبر فقط عما يجيش فى صدر شعبه ، واليهودى يظل يتكلم لغات الشعوب مادام مهيبض الجناح ، ولكن ما أن يخضعها

(١) يقصد الحزب الشيوعى إشارة إلى مؤسسه كارل ماركس اليهودى ، وقيام الشيوعية على رفض الدين . (الحفنى) .

لسيطرتة حتى يدعوها إلى التخاطب بلغة عالمية (كالاسبيرانتو مثلا)
ليتسنى لليهودية أن تطويعهم تحت جناحيها بيسر وسهولة .

« ولقد أظهر » بروتوكول حكماء صهيون « الذي أنكر اليهود وجوده
بشدة مغالٍ فيها ، أن وجود هذا الشعب يرتكز على كذبة
دائمة ، أما تأكيدهم أن البروتوكول مدسوس على اليهود ، فلا يعنو
كونه محاولة تضليل استمدوا عناصرها من منجم الكذب اليهودي الذي
وضع القواعد التي اشتمل عليها البروتوكول ، فالواضح أن الوثيقة
تفضح طبيعة النشاط اليهودي وما يهدف إليه ، وهامى وقائع القرن
الماضى والسنوات التي مضت من القرن العشرين تشهد بأن
« بروتوكولات حكماء صهيون » قد نفذ بعض ما جاء فيها بدقة
وإحكام . أفنعجب والحالة هذه لتصايح الصحافة اليهودية وحرصها
على إنكار وجود الوثيقة ؟ إن إحاطة الشعوب بخطط اليهود ومراميهم
البعيدة قمينة بالقضاء على الخطر اليهودي قضاء مبرما . »

« ولعرفة اليهودى حق المعرفة لست أجد طريقة أصلاح من تتبع
خطاه خلال العصور . ولما كان نموه واحداً فى كل عصر ، وكانت
الشعوب التى عاش على حسابها لم تتبدل ، فمثال واحد يكفى لتتوير
الأذهان .

« هبطت طلائع اليهود الأرض الجرمانية فى أعقاب الجحافل الرومانية الغازية ، وانتشروا فى البلاد بصفة كونهم تجارا ، وخلال الانقلابات التى سببتها الهجرة الواسعة اختفى اليهود فى الظاهر ، ليظهروا من جديد حالما بدأت تتكون الدولة الجرمانية . وفى هذه المرة أيضا ظهروا كتجار ، ولم يهتموا بإخفاء طابعهم المميز لأن سماتهم وجعلهم باللغة كانت تفضح تناقضهم مع مُضيفيهم ، بيد أن كونهم غرباء ويهوداً لم يجر عليهم شيئاً من المتاعب ، فالجرمان مضيافون ويعطفون على الغريب أيأ كان .

« ولم يمض وقت طويل حتى تسلل اليهود إلى الحياة الاقتصادية ليس كمنتجين بل كوسطاء . وقد أهلتهم براعتهم التجارية والمران الطويل لأن يبرزوا الآريين فى الميدان التجارى حتى أوشكت التجارة أن تكون وقفاً عليهم .

« وبدأ اليهودى يقرض الناس المال بفائدة فاحشة ، ولم يكن الآريون قد اعتادوا هذا النوع من القروض ، فلم ينتبهوا إلى خطره إلا بعد فوات الأوان .

« وبعد أن احتكر اليهود التجارة والأعمال المالية ، شغلوا فى المدن أحياء خاصة بهم ، مؤلفين دولة ضمن الدولة . ولكن الفوائد الفاحشة

التي كانوا يتقاضونها أفقدتهم عطف الناس وازداد النفور منهم ، واشتدت النقرة عليهم عندما راحوا يرهنون الأرض الواسعة ويتحكمون في رقاب مالكيها وفلاحيتها تحكماً ألب عليهم ضحاياهم في النهاية ، وقد اكتشفوا في هؤلاء الغرباء طفيليات مزعجة وخطرة .

« وحيال هذه النقرة التي عبّر عنها في بعض المناطق باستخدام العنف في تأديب المراهبين اليهود ، لجأ « الضيوف » إلى الحكام ، واستطاعوا بسحر المال وشتى المغريات استدراجهم إلى تزويد كل يهودي بكتاب يؤمن له حماية شخصه وثروته ، وهكذا أطلق الحكام للعلق أن يمتص دم الضحية ، وعادوا تحت ضغط الرأي العام ، فأخضعوا انتقال الأراضي لقيود ثقيلة وحظروا على المراهبين رهنها . وأذعن اليهود أو تظاهروا بالإذعان ، يقيناً منهم أن الحكام سيستجوبون بهم يوم يعوزهم المال ، وقد كان ، وتسلم المراهبون مقابل أموالهم وثائق تطلق يدهم في استثمار ربح أموالهم وتمنحهم الامتيازات التي يتمتع بها أرباب الإقطاع . أما أموالهم التي دفعوها فقد تنازلوا عنها غير أسفين ، لعلمهم أنهم قادرون على استردادها من جيوب الرعية أضعافاً مضاعفة عن طريق الفائدة المركبة ... وترتب على هذه السياسة عجز الأمة الألمانية عن التحرر نهائياً من الخطر اليهودي .

« وفي عهد فريدريك الكبير قامت حركة فكرية ضد زواج اليهود من
الألمانيات وزواج الألمان من يهوديات ، وتزعم هذه الحركة جوته^(١) الذي
لم يكن رجعيا ولا قصير النظر . وأيد الشعب الحركة لأنه أدرك منذ
زمن بعيد أن اليهود عنصر غريب تغلغل في كيان الأمة لئلا يتخلى
عن طابعه المميز وتقاليده .

« ولم تفت اليهود خطورة الحركة فقرروا الاندماج نهائيا في الأمة
الألمانية لئلا يتخلوا عن خصائصهم ، ولم يكن لهم من الألمانية
سوى اللسان الذي اتقنوه مع الزمن . ومتى كانت اللغة قوام الجنسية ؟
هذه الحقيقة لم تفت « الشعب المختار » . ومن هنا كان عدم اهتمامه
بالحفاظ على لغته وحرصه الشديد على بقاء دمه نقيا ، لأن الدم هو
قوام الجنس . وليس أسهل من تعلم لغة شعب من الشعوب ، ولكن المرء
يعبر باللغة الجديدة عن أفكاره القديمة . واليهودي يمكنه إتقان مائة
لغة ، ولكنه يظل يهوديا بتفكيره .

« ولقد قرر اليهود أن تكون الصبغة الألمانية طابعهم الغالب لأنهم
بدأوا يلمسون كراهية الشعب لهم ، وشعروا في الوقت نفسه بتداعي

(١) جوته : (١٧٤٩ - ١٨٣٢) ولجانج جوته أشهر كاتب وشاعر ألماني ، وهو
مؤلف مأساة الدكتور فاوست وإجمونت ، وعرف عنه حبه للأدب العربي
والآداب الشرقية .

نفوذ حماتهم الذين كرههم الشعب لتأييدهم لليهود ضدهم . كما شعروا بالحاجة إلى مرتكز جديد يستندون إليه فى توسيع نطاق نشاطهم الاقتصادى دون أن يترتب على ذلك تفاقم النقمة الشعبية عليهم . فبدأوا بأن طالبوا لأنفسهم بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الألمان الحقيقيون ، ثم وزَّعوا الألوار على أنفسهم ، فإلى جانب الذين تسلموا إلى قصور الأمراء وفرضوا أنفسهم مستشارين ورجال بطانة ، راح رفاق لهم يتوددون إلى الشعب ، متظاهرين بالحدب عليه ، ومشاطرة الآلام والمشاكل التى يعانىها . ولم تكن مهمة هذا الفريق هيئة ، لأن الشعب ، على طيبة قلبه وضعف ذاكرته لا يطمئن بسهولة إلى الذين استغلوه دون شفقة ، ثم أقبلوا عليه يواسونه ويتفجعون على مصيره .

« وبدأ اليهودى بإيهام الشعب أنه يريد أن يكفر عن إساءته إليه بأعمال إنسانية خالصة لوجه الله ، ولكنه حرص على إفهام الخاص والعام كم هى جسيمة تضحياته فى سبيل تحسين مستوى الطبقات الكادحة . وما يزال يردد هذه النغمة وينشرها بمختلف وسائل النشر حتى بدأ الناس فى ألمانيا وخارجها يميلون إلى تصديق ادعائه ، أما الذين ارتابوا فى صدقها فقد اتُّهموا بسوء النية وبالتحامل على اليهودى « المسكين » .

« ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد انقلب اليهودى بين ليل توضحاها إلى داعية للتحرر ونصير للحرية ، والتهب غيرة وحماسة ، ولم يلبث حتى حمل راية التقدم ومشى فى طليعة ناشرى الأفكار الجديدة ، إلا أن هذا لم يمنعه من الاستمرار فى تقويض أسس الاقتصاد القومى . وقد تمكن من التسلل إلى حقل الإنتاج عن طريق الشركات المساهمة ، مجرداً بذلك الصناعة الألمانية من الأسس التى تقوم عليها الملكية الفردية . وسرعان ما ترتب على تدخله قيام هوة سحيقة بين أرباب العمل وعمالهم ، نجم عنها فيما بعد انقسام المجتمع إلى طبقات .

وشدّد اليهودى فى الوقت نفسه قبضته على البورصة مما أتاح له الإشراف المطلق على نشاط الأمة فى كل حقل ، وحرصاً منه على تقوية مركزه فى الدولة عمل جاهداً فى سبيل ذلك الحواجز التى كانت تعوق خطاه .. وكان عليه أن يبدأ بالدعوة إلى التسامح الدينى فاستخدم الماسونية فى تحقيق هذه الغاية ، وكانت الماسونية قد جذبت إلى شراكها الحكام والنبلاء وأقطاب الاقتصاد والبورجوازيين ورجال الفكر ... وفى الوقت نفسه تظاهر اليهود بالتعطش إلى المعرفة ، ولم يرضئوا بالثناء على كل حركة تقدمية ، واختصوا بشنائهم الحركات التى يترتب على نجاحها خراب الآخرين ، أما التى تعود بالنفع على البشر

فقد حاربوا دون هوادة ، لأن بروتوكولات حكماء صهيون قد أوصت بمحاربة كل حضارة حقيقية ، والوقوف فى طريق كل تقدم حقيقى ، لأن هذه وتلك لا يخدمان الأهداف اليهودية ... وأدرك اليهود بثاقب نظرهم أن طبقة العمال الكادحين أو البروليتاريا ، وهى الطبقة الجديدة فى المجتمع التى ظهرت مع الثورة الصناعية ، يمكن أن تغير مجرى التاريخ ، فتقربوا منها ، وتبنوا قضيتها ومفهومها للعمل وشروطه ونتائجه ، دون أن يتخلوا عن أسلوبهم الرأسمالى .. وسرعان ما أضحى اليهودى ^(١) قائد الحملة العمالية ، هذه الحملة التى كانت فى الأصل موجهة ضده ، ولكنه عرف كيف يتنصل من كل تبعه ليلقى الوزن على الأبرياء . أجل تبنى اليهودى قضية البروليتاريا ليحارب بالعمال الناقمين الطبقة البورجوازية ، وكان من قبل قد حارب بالطبقة البورجوازية طبقة الإقطاعيين ، واستند على البورجوازية فى استخلاص الحقوق المدنية من الطبقة الإقطاعية . وراحت الدعاية اليهودية البارعة توجه الحركة العمالية توجيهات يتفق وهدف اليهودية الأسمى : السيطرة على العالم ^(٢) .

(١) يقصد كارل ماركس زعيم الحركة الماركسية العمالية .

(٢) يقصد دعوة ماركس لتأليف دولة عمالية عالمية.

وبعد أن تم لليهود الإشراف الفعلى على الدولة ، اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، تخلّوا عن تحفظهم التقليدى وكشفوا عما يسميه أنتمهم « أهداف اليهودية العالمية ، أو أهداف الصهيونية ، وكفّوا عن الادعاء أنهم جماعة دينية ، ليصارحوا الناس فى كل مكان بأنهم يؤلفون جنساً له طابعه وخصائصه ، وأن مطمحهم القومى هو إنشاء وطن فى فلسطين، لا تكون له معالم الدولة بمفهومها الحديث بل يكون الأرض التى يتطلع إليها اليهود المنتشرون فى كل بلد ، على أنها الملجأ الأخير الذى إليه يفزعون » .



تلك كانت عجالة من كتاب هتلر « كفاحى » وبالطبع كان هتلر يردد ما يجرى به الفكر الألمانى عموماً ، ونظريات جوبينو وتشمبرلين خصوصاً . وكان فشته الفيلسوف قد وجه خطاباً إلى الأمة الألمانية سنة ١٨٠٧ بعد هزيمتها أمام نابليون فى بينا . وأعلى فشته من قدر الألمان وحطّ من قدر الفرنسيين ، وأسلك اليهود معهم . وجاء هيجل سنة ١٨٢٤ أستاذ كارل ماركس ولينين ، ولكنه بعكسهما مجدّ الدولة ورأى فيها تجسيداً للفكرة الأخلاقية ، وقال إن فترات السعادة فى العالم هى فترات الخواء ، فترات الاتفاق بدون صراع ، ولكن الحرب نعمة ، لأنها مُطَهِّرة ، وهى تُصلح من صحة الشعوب التى يفسدها

طول السلام ، كما يحفظ هبوب العواصف البحر من العطب الذي قد يصاب به لو أنه كان ساجيا ساكنا لمدة طويلة . وحفظ هتلر عن هيجل نظريته في البطل ، هذا الذي يمثل برسالة وإرادة روح العالم .



ثم تعاقب على الجامعة هاينريش فون تريتشك حتى سنة ١٨٩٦ ، وظل يدرس التاريخ ، واشتهرت محاضراته ، وأمها الضباط والجنرالات ، وكان تأثيره على الفكر الألماني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ضخما ، وظل قويا حتى أيام فلهم الثاني وأدولف هتلر ، ومع أنه كان ساكسونيا إلا أنه صار من غلاة البروسيين ، وصار بروسيا أكثر من البروسيين . وهو مثل هيجل مجد الدولة وجعلها الأسمى ، أما المواطن فلا يهم - « لا يهم ما تفكر فيه طالما أنك تطيع » . وبز فون تريتشك هيجل فجعل الحرب أعلى تعبير للإنسان ، وقال « إن المجد العسكري هو أساس كل الفضائل السياسية » و « إن الحرب ليست فقط ضرورة عملية ، ولكنها ضرورة نظرية كذلك ، ضرورة يفرضها المنطق » . ويتضمن مفهوم الدولة مفهوم الحرب ، لأن جوهر الدولة هو السلطة . وبشر الفيلسوف نيتشه بمجيئ السوبرمان ، وصاغ المؤلف الموسيقى الأكبر هاغنر أسطورة

الشعب الألماني ، إلا أن ذلك كله لم يكن يعدل تأثير جوبينو وتشمبرلين .



وكان جوبينو قد كتب كتاباً ضخماً من أربعة أجزاء ، نشره في باريس بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٥ بعنوان " مقال في عدم المساواة بين الأجناس البشرية " (Essai sur l'inégalité des races humaines : Gobineau) وقال إن المسألة الأجناسية هي التي تسيطر على ما عداها من مشاكل التاريخ . وهناك ثلاثة أجناس كبرى ، وهي الأبيض والأصفر والأسود ، والأبيض هو الأسمى ، ويوضح التاريخ أن كل الحضارة تتبع من الجنس الأبيض ، وأنه لا حضارة هناك يمكن أن توجد دون معاونة من هذا الجنس . وجوهرة الجنس الأبيض هو الجنس الآري ، هذه الشجرة المشهورة ، أنبل شجرة في بستان الجنس الأبيض . وتتبع جوبينو شجرة الجنس الآري إلى أواسط آسيا .

أما هوستون تشمبرلين ، فكان إنجليزياً ، ولكنه تعلم الألمانية وكتب بها وأتقنها ، وعاش في ألمانيا بقية عمره ، وتجنس بالجنسية الألمانية ، وألف كتابه الأشهر « أسس القرن التاسع عشر

Die Grundlagen des 19 . Jahrhunderts « فى ١٩ شهراً ، ما بين أول إبريل سنة ١٨٩٧ وأكتوبر سنة ١٨٩٨ ، فى فينيا ونشره سنة ١٨٩٩ ، فكان أساس الفكر الألمانى المعادى للسامية ، ولعلنا نستطيع أن نتتبع العداء للسامية إلى أبعد من ذلك ، إلى مؤسس البروتستانتية مارتن لوثر ، فلقد كان هذا المفكر العظيم شديد العداء للسامية ، وشديد التأييد للدعوة للطاعة للسلطة السياسية ، وكان يريد « أن تتخلص ألمانيا من اليهود ، وأن يسلبوا من كل ثرواتهم قبل أن يطردوا ، وأن تحرق معابدهم ومدارسهم ، وأن تدمر منازلهم ، وأن يوضعوا فى الزرائب كالخنازير ، فى البؤس والأسر » .



الحل السوفيتى للمسألة اليهودية

ورأى الاتحاد السوفيتى فى ٢٨ مارس سنة ١٩٢٨ أن يخصص قطعة من الأرض يستعمرها اليهود السوفييت داخل حدود الاتحاد السوفيتى نفسه ، أى أنه حلّ المسألة اليهودية باستقلال اليهود داخل الدولة السوفيتية ، فأقطعهم منطقة بيرو - بيدجان ، على أمل أن يتجمع فيها يهود الاتحاد السوفيتى كله ، وأن يطوروها بحيث تتمتع بعد ذلك بالحكم الذاتى وتصبح جمهورية سوفيتية يهودية ، ووصف

كالينين اليهودي ، وعضو اللجنة العليا للاتحاد السوفيتي الغرض من الاستيطان في بيرو بيدجان فقال « إن هؤلاء اليهود الذين تعد الثقافة القومية اليهودية شيئاً عزيزاً عليهم ، والذين يرغبون في تطوير وحدة الدولة اليهودية كأساس تقوم عليه الثقافة اليهودية ، على شرط أن تكون ذات محتوى اشتراكي ، يجب أن يساعدوا في بناء بيرو بيدجان^(١) » .

وقال « إن يهود بيرو - بيدجان لن يكونوا قومية لهم صفات يهود مدن بولندا ، ولتوانيا إلخ ، إنما اليهود سيكونون مستعمرين اشتراكيين ، وسيكونون مجموعة قومية داخل قوميات الأسرة السوفيتية . وسيتحقق هذا طبعاً على مر الزمن »^(٢) .



بيرو بيدجان Biro Bidjan

منطقة ضخمة المساحة تزيد قليلاً عن نصف مساحة بريطانيا وتقع في أقصى المنطقة الشرقية من سيبيريا ، وتمتد من نهر « أمور » شمالاً ، ويخترقها من الوسط خط سكة حديد سيبيريا ، ويحدها شرقاً على بعد عدة أميال من مدينة خاباروفسك عاصمة أقصى المنطقة

(١) Jews in the U. S. S. R. P. 33

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

الشرقية والتي تبعد عن فلاديفوستك بنحو ١٨ ساعة بالسكة الحديد . وعاصمة المنطقة هي مدينة بيرو بيجان ، وكانت تسمى قديما « تيخون كاجا » ، وتمر بها كل القطارات السريعة بين فلاديفوستك وموسكو . وكانت المنطقة قبل أن تخصص لليهود يسكنها نحو ٣٠,٠٠٠ من جنسيات مختلفة .

وبوصول اليهود إليها أصبح عدد سكانها أربعة أضعاف . وتغطي النباتات أكثر من نصفها ، وهناك مساحات كبيرة من المراعى الغنية ، والمياه بها متوفرة ، ويستخرج منها الجرانيت والجرافيت والمغنسيوم والبالزك وأحجار البناء والكوارتز والحديد والفحم . والأرض خصبة للغاية وتنتج بوفرة الأرز والقمح والجزر وفول الصويا والحبوب . وقالت مجلة « جويش كرونيكل » البريطانية « إن سكان المنطقة ذاتية الحكم يزدنون باستمرار ، ويتدفق اليهود المهاجرون من كل أنحاء الاتحاد السوفيتي إليها، وخصوصا الشباب » .

ويعلق اليهودي ^(١) ريناب على ذلك فيقول ^(٢) : وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تُحل بها المسألة اليهودية في الدول الغربية

(١) Anti-semitism and the Jewish Question by I. Rennap.

(٢) أ . ريناب عضو الحزب الشيوعي البريطاني : وهو يهودي ورأيه هنا يهنا بوصفه وجهة نظر تأخذ بالماركسية من جهة ، وترى في الحل السوفيتي حلا أمثل للأمانى القومية اليهودية .

التي بها جاليات يهودية ضخمة ، كالولايات المتحدة ، والتي يقدر يهودها طبقا للجويش كرونيكل بخمسة ملايين ونصف .

ومع ذلك حاربت الصهيونية الحل السوفيتي للمسألة اليهودية . فما رأى سارتر في هذا ؟ وذهبت معارضة المؤتمر الصهيوني العالمي للحل السوفيتي إلى حد اتهامه بأنه يقضى على قومية اليهود !

ويرد « ريناب » اليهودي البريطاني على قرار الصهيونية العالمية فيقول : إن اليهودية ليست قالباً جامداً مطلقاً لا يتغير ، وينسى اليهود الصهاينة أن الثقافة اليهودية قد تناولها التغيير في الماضي لتتناسب مع المراحل المختلفة من التطور التاريخي . ويستطرد فيقول : إن الثقافة اليهودية في الاتحاد السوفيتي نوع من الثقافة أسمى في رأى الصهاينة من اليهودية ذاتها ، مع أنها جزء لا يتجزأ من المجتمع الجديد .

ويرى ريناب - وهذا هو الكلام العلمي - أن اضطهاد اليهود ليس له مصدر إلا متناقضات المجتمع الرأسمالي والبورجوازي الأوروبي ، وليس إلا نوعاً من الاضطهادات العديدة التي في هذه المجتمعات . ولكن المجتمع الاشتراكي يقوم على أسس من التكافؤ والمساواة والاشتراكية ، ويلغى كل التناقضات والاضطهادات ومنها

اضطهاد اليهودى ، ومن ثم لا تعدو هناك مسألة يهودية فى المجتمع الاشتراكى . وواجب اليهودى أن يحول جهده لا إلى تأسيس وتدعيم دولة إسرائيل فى فلسطين عن طريق طرد الفلسطينيين واضطهاد العرب ، بل الانضمام إلى الطبقات المضطهدة الأخرى فى مجتمعات كل العالم وخلق جبهة اشتراكية قوية ضد الرأسمالية والإمبريالية والبورجوازية ، وهى النظم التى تقوم على الاضطهاد وتقسيم الطبقات والاستغلال .



الحل الصهيونى للمسألة اليهودية

تقوم الحركة الصهيونية على فكرة إنشاء وطن قومى لليهود العالم فى فلسطين كحل للمسألة اليهودية . وتقول الحركة الصهيونية إن اليهود خارج إسرائيل سيظلون أغرابا وسيبقون مهدين بالاضطهاد حتى تكون لهم دولة . وتدعى الحركة الصهيونية أن فلسطين هى الأرض الطبيعية التى يمكن أن تقوم عليها دولة يهودية لعلاقاتهم التاريخية^(١) بها . ويدعى بعض الصهاينة أنهم اشتراكيون ، بل تدعى حركة داخل إسرائيل أنها حركة وحزب اشتراكى عمالى ، واشتركت

The Jewish State : Herzel, Theodore. Newyork, (١) Maccabean Publishing Company 1904 .

إسرائيل بحزبها الاشتراكي العمالي في الحركة الاشتراكية الدولية وفي المؤتمر الليبرالي ، وتدعى الحركة الصهيونية أن بها حركة شيوعية وحزباً شبيوعياً . ولكن الاشتراكيين الإسرائيليين يرون أن تحقيق الاشتراكية الحقيقية أمر مرهون بالمستقبل البعيد ، وأما الآن فالشيء العاجل هو بناء الوطن القومي اليهودي . ويصف ريناب ، في المرجع السابق ، الحركة الصهيونية ^(١) فيقول : إنها لا يمكن أن تتدرج ضمن المعاني التي تتوارد بلفظة صهيون التي في الطقوس الدينية اليهودية ، لأن الصهيونية بمعناها الحالي شكل حديث للجيتو القديم .

ويقول ريناب : إن اليهود كانوا في كل مكان يعتقدون وينضمون للحركات التحررية ، لأنها كانت تفيدهم ، فالثورة الفرنسية أفادتهم ،

(١) الحركة الصهيونية نسبة إلى صهيون ، وصهيون بالاسم رابية في أورشليم ، والاسم كنعاني وليس عبريا ، وبنى داود قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس في القرن الحادي عشر ق . م . فوق رابية صهيون ، وصارت كلمة صهيون مع الزمن تعني الحكومة الدينية اليهودية . وقبل قيام الحركة الصهيونية قامت منظمة في روسيا اسمها عشاق صهيون يرجع إليها سبب تسمية الحركة الصهيونية من بعد ، وكان لها فروع خارج روسيا ، وانتمى إليها يهود بارزون مثل والد وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ، وكيش ، وبن جوريون ، وينيتوئش ، وسوكولوف صاحب كتاب تاريخ الصهاينة . وكانت عشاق صهيون أول منظمة ترسل رواداً يهوداً لاستعمار فلسطين ، وهي التي اغتالت القيصر إسكندر الثاني في ١٣ مارس سنة ١٨٨١ (الحفنى) .

والليبرالية أفادتهم ، ووطنية البورجوازية الجديدة أفادتهم ، وسرعان ما قامت بين اليهود حركة أطلقوا عليها اسم هاسكالا *haskalah* أى **التقوير** ، قامت فى بولندا ولتوانيا وألمانيا والروسيا ، وهدفت إلى نشر التعليم العلمانى والثقافة اليهودية القديمة على ضوء الثورة العلمية والعقلية ، وأدخلوا الأدب والفلسفة الأوروبيين فى الحياة اليهودية ، ودرس المتقنون اليهود اللغة الألمانية ، وقرأوا جوتة ^(١) وكنط وفشته وشيلنج وغيرهم من فلاسفة الحركة الإنسانية البورجوازية وترجموهم إلى العبرية .

(١) جوته Goethe شاعر ألمانى (١٧٩٤ - ١٨٣٢) ، بل من أكبر شعراء ألمانيا قاطبة ، وأثره على الفكر الألمانى والإنسانى أكبر من أثر شكسبير ، حذر اللغة الألمانية من الجفاف ، وألهم شعره الموسيقيين ، واشتهر بتحفته « فاوست » فى المسرح « وآلام فرتر » و« فيلهلم ميستر » فى الرواية وقاد المسرح والفكر والأدب الألمانى مع هيردر وشيللر . أما « كنط Kant » (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فهو الفيلسوف الألمانى مؤلف نقد العقل الخالص ونقد العقل العلمى ، مثالى النزعة ويرى أن الأشياء لا توجد كظواهر ولكنها توجد كاشكال يعيها الحس ، ويؤمن بالحرية وبالله . وفشته Fichte (١٧٦٢ - ١٨١٤) فيلسوف ألمانى تلميذ كنط وأستاذ شيلنج ، يختلف مذهبه عن مذهب كنط فلقد صار مثاليا مطلقا ولا وجود عنده للواقع إلا وجود الأنا . وشيلنج Schelling فيلسوف ألمانى (١٧٧٥ - ١٨٥٤) له تأثيره الضخم على الفلسفة الألمانية ، وهو يتبع فشته ويرفض الواقع إلا الأنا المطلق الذى يعبر عن ذاته فى العالم . (الحفنى)

ثم ظهرت حركة تسمى الصهيونية الاشتراكية ، مؤداها أنه
 فى دولة يهودية فقط ، تنميتها الرأسمالية اليهودية ، يمكن أن تنهض
 بروليتاريا يهودية تناضل من أجل الاشتراكية إلى جانب عمال العالم ،
 وإذن فينبغى أن يعمل الاشتراكيون اليهود وغير اليهود على تكوين
 الدولة اليهودية أولا حيث يتعاون فيها الرأسماليون والعمال . ويصف
 لينين هذه الحركات التحريفية بأنها حركات انتهازية تستغل الحركة
 الاشتراكية لمصلحتها القومية . ويقوم الحزب العمالي الاشتراكي
 الإسرائيلي على هذا الأساس الفكرى ، ويشارك بهذه الانتهازية فى
 الحركة الاشتراكية الدولية . وهؤلاء الاشتراكيون الإسرائيليون رغم
 ادعائهم احتقار البورجوازية إلا أنهم يهدفون إلى نفس غاياتها وهى
 دعم الصهيونية ، ولكنهم يتخنون لأنفسهم طريق الاشتراكية أو ادعاء
 الاشتراكية ، رغم علمهم وعلم الحركة الاشتراكية الدولية أن الصهيونية
 تتعارض شكلا وموضوعا مع الاشتراكية . ولقد اختار بوروشوف
 زعيم الحركة الصهيونية العمالية Labour Zionism فلسطين
 لتقوم عليها الدولة اليهودية ، ولم يستطع أن يعطى سبباً لاختياره ،
 وأعلن مع ذلك أنه اشتراكي .

ولقد تجاهلت الحركة الاشتراكية الصهيونية أن أرض فلسطين
 عربية ، وأن فلسطين رغم احتلال تركيا لها فقد كان لشعبها العربى

أمانيه فى الاستقلال ، وكانوا قد بدأوا يطلبونه منذ أربعينات القرن التاسع عشر ، وعندما احتج بعض المفكرين الاشتراكيين بأن فلسطين يسكنها شعب عربى لم يبال بوروشوف ووصفهم بالبداية ، ثم انثنى يقول إن العرب يمكن أن يندمجوا فى الدولة اليهودية . طبعا دعوة لطيفة من إنسان يقال إنه ناضل ضد اندماج اليهود فى الشعوب الأخرى ، لكن ربما كان العرب مختلفين ، وما هو غير مقبول لدى الإسرائيليين يصبح مقبولا لدى العرب !!!



الصهيونية والتحالف الإمبريالى

ارتبطت الصهيونية بالرأسمالية العالمية ، فكان للشركات الاحتكارية الكبرى فى العالم فروع لها فى إسرائيل منذ قيامها ، وحتى قبل قيام إسرائيل ، وكانت لهذه الشركات الكبرى مجالس إدارة من الرأسماليين من اليهود ، كشركة الصناعات الكيماوية البريطانية كاديراس وشركاه ، وشركة ماركس وسبنسر ، وشركة بوتاس فلسطين ، وكان على هذه الشركات يهود متعصبون ، مثل بارون ملك صناعة الطباق والدخان ، وهارى ساكر مدير ماركس وسبنسر ، وسيمون ماركس رئيس مجلس إدارتها ، وا . م سيف وزوجته ريكا

سييف ، وكلهم رأسماليون بريطانيون يهود .

أما الرأسمالية اليهودية الأمريكية فكانت تمثلها شركة تأمينات برودينشال أند صن لايف أشورينس ، ولها استثمارات في قروض البناء في فلسطين بلغت ١,٧٥٠,٠٠٩ جنيه استرليني حتى نهاية سنة ١٩٣٥ ، وقدم بنك لويدز وبنك باركليز قروضا ضخمة لصالح المؤسسات اليهودية التي تقوم بشراء الأراضي من العرب . وأعلنت الحركة الصهيونية أكثر من مرة أنها تستخدم الإمبريالية البريطانية لخدمة مصالح الصهيونية وأهدافها ، ووضح هذا الاستخدام بشكل سافر في « الورقة البيضاء The White Paper » التي نشرت سنة ١٩٣٩ ، تحت ضغط التهديد بانتشار الفكر الفاشي في العالم العربي ، كرد فعل للاستعمار البريطاني ، ونددت الورقة البيضاء بإعلان بلفور ولكنها اعتبرت أن لليهود الأقلية في فلسطين حقوقا ، وجاء تعبيرها عن ذلك هكذا « حقوق الأقلية اليسوف » ، واليسوف هم الأقلية اليهود ، ومعنى ذلك أن بريطانيا ، بعد أن ساعدت اليهود طوال هذه المدة ، ومن الحرب العالمية الأولى حتى بداية اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وخوفا من انتشار الفاشية في العالم العربي ، تراجعت ووعدت بأن يظل اليهود في فلسطين أقلية ، وبذلك وجهت ضربة شديدة إلى حلم الحركة الصهيونية في إقامة حكومة

إسرائيلية ذات أغلبية يهودية مطلقة في فلسطين .

وكان هناك نحو ٦٠,٠٠٠ يهودى في فلسطين سنة ١٩١٤ ، بينما كان عدد السكان العرب ٥٠٠,٠٠٠ ، وفى ظل الاحتلال البريطانى صار عدد اليهود ٥٠٠,٠٠٠ والعرب مليوناً ، وفى سنة ١٩٣٢ دخل فلسطين ٢٠٠,٠٠٠ يهودى ، وبلغت الاستثمارات البريطانية والأمريكية سنة ١٩٣٦ ثلاثين مليوناً من الجنيهات ، ثم ١٠٥ مليوناً حتى سنة ١٩٤٠ ^(١) واستولت على امتيازات استغلال الملح من البحر الميت والبتاس ، ومشروعات توليد الكهرباء من مياه الأردن ، والأسمت ، وبلغت مشتريات الصندوق القومى اليهودى من الأراضى الزراعية العربية حداً مذهلاً ، وفى المدة من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢٩ بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ثمناً لعدد ١٧٥,٠٠٠ دونم ، وفى المدة من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٥ بلغت ٤,٥٣١,٠٠٠ جنيه ثمناً لعدد ٥٠,٠٠٠ دونم . وكانت معظم هذه الأراضى فى المناطق الخصبة ، وعمل الهستدروت ^(٢) على اتباع سياسة التفرقة بين اليهود والعرب فى

(١) ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٠ Jewish Chronicle

(٢) الهستدروت : الحركة العمالية اليهودية ، وهى حركة نقابية تعاونية نوه عنها العلامة هارولد لاسكى وهـ . ج . كول ، ولكنهما فى الحقيقة لم يتعمقاها لأنها حركة استعمارية روحاً ، « والأهداف النقابية ليست هى الأصل الذى تسعى إليه ، ومن ثم دعوى إشتراكيته قائمة على أساس المغالطة » .

المصانع والمزارع بالإضافة إلى عملية الإفقار المستمرة للمؤسسات العربية ، وعدم قدرتها على منافسة المؤسسات اليهودية ، ومزاحمة العمالة اليهودية للعمالة العربية ، والحرف والمهن اليهودية للحرف العربية ، وتسبب هذا كله في إيجاد روح من الحاررة بين السكان العرب ، وقامت حركة القومية العربية بتزعم الإضراب العام المشهور سنة ١٩٣٦ ضد اليهود وبريطانيا ، وعندئذ بدأ العالم الغربي والحركة الصهيونية نفسها يفتقان على الخطأ الذي ارتكبهما بتجاهلهما للعرب سكان فلسطين الأصليين ، الذين قويت مطالبتهم لبريطانيا بالاستقلال . وهكذا صارت في فلسطين حركتان : الحركة الصهيونية الإمبريالية وتحالفها الطبيعي مع الاستعمار البريطاني والمصالح الغربية ، والحركة القومية العربية باتجاهها المستقل ، ومن ثم كانت حتمية تعارض وتناقض الحركتين من أول ظهورهما .

وكان اتجاه القومية العربية الطبيعي إلى السعى والتحالف مع الحركة الاشتراكية العالمية ، واتجاه الحركة الصهيونية إلى الارتباط بالإمبريالية العالمية المحدثه ، وهي الإمبريالية الأمريكية ، ووضع ذلك بشكل سافر في العنوان الإسرائيلي سنة ١٩٦٧ .

وكان أمام الصهيونية من أول الأمر إما مصالحة العرب والتوافق معهم ، وعندئذ يكون مطلبها هو مطلب العرب : الاستقلال ومعاداة

الإمبريالية ، وإما مشاركة الإمبريالية في مصالحها وأطماعها . وكانت أمام الهستدروت فرصة نادرة ، وهي طريق النضال ضد الرأسمالية ، ولكنها أولاً جعلت المبدأ النقابي الذي يضع كل العمال على قدم المساواة بصرف النظر عن الدين أو القومية في مركز ثانوي ، وأعلت عليه مبدأ القومية الصهيونية ، وهي ثانياً اختارت جانب أصحاب الأعمال والإمبريالية البريطانية على جانب الاتجاهات الاشتراكية . ويفضح مؤسسها « بن جوريون » أهدافها فيقول: «إنى أنتمى إلى هذا الصهيونى الذى يدعو إلى أكبر قدر من السلطة الصهيونية ، سلطة غير محدودة لا يعوقها عائق ، بمعنى أن يسيطر التشريع القومى على العمل اليهودى ، وأن يسيطر التشريع القومى على رأس المال اليهودى ، وأن يسيطر التشريع القومى على وجود الشعب اليهودى . هذه السلطة القومية التى أطلب بها هى ما أسميه الاشتراكية » .

هذا هو مفهوم الاشتراكية عند بن جوريون ، وهو نفس مفهوم الحزب القومى الاشتراكى الألمانى (النازى) ، فالحركة الاشتراكية الإسرائيلية حركة نازية نصاً وروحاً ، والهستدروت لكى تحقق قيام الوطن القومى مارست التفرقة العنصرية وأبعدت العرب عن المؤسسات

اليهودية حتى يمكنها أن تستوعب المهاجرين اليهود الجدد ، ولكن العمال العرب كانوا أرخص في أجورهم بدرجة مذهلة ، وكان رأس المال اليهودي ، بحكم جوهره كرأسمال يؤثر الأجور المنخفضة ، فاضطرت الهستدروت إلى خفض مستوى أجور العمال اليهود لينافسوا العمال العرب ، ولكنها من ناحية أخرى عوّضت العمال اليهود باشتراكات من صناديق تمويل الهستدروت نفسها . وحرّمت إسرائيل الأحزاب بحكم القانون . وعملت على تشغيل اليهود دون العرب في المشروعات اليهودية ، وهو مبدأ يؤدي بالعرب وإسرائيل إلى البطالة ، وإلى احتراف المهن البسيطة ، وزادت الشقة بين الحركة العمالية العربية في إسرائيل والحركة العمالية اليهودية لمعاداة الأولى أساسا للاستعمار والإمبريالية ، وارتباط الهستدروت برأس المال اليهودي الأمريكي والبريطاني .

وإذا فالصهيونية لم تحل المسألة اليهودية نفسها ، ناهيك عن حلّها في الأوساط الغربية حيث يعيش ١٦ مليوناً من اليهود خارجها ، وكل ما فعلته الصهيونية هو أنها مدّت نطاق المشكلة اليهودية لتشمل اليهود الذين كانوا في فلسطين ، والذين وفدوا إليها بعد قيام إسرائيل ، وخلقت دولة جديدة زرعها زرعاً في الشرق الأوسط لتستخدمها

الإمبريالية ضد حركة القومية العربية والحركات الاشتراكية فى العالم
العربى.



الماركسية والصهيونية

فى مقدمة كتاب ^(١) « العداء للسامية والمسألة اليهودية »
الذى أسلفنا الإشارة إليه من تأليف ريناب يقدم وليام جلاشر ،
وهو يهودى بريطانى ماركسى ، للكتاب فيقول إن العداء للسامية ليس
له مصدر إلا متناقضات المجتمع الرأسمالى أو البورجوازى ، وهو
ليس إلا نوعا من الاضطهادات العديدة التى فى هذه المجتمعات .

ولكن المجتمع الاشتراكى يلغى الاضطهادات ويقيم أسسه على
التكافؤ والمساواة والاشتراكية ، وهو يهدم كافة التناقضات
والاضطهادات ، ومنها اضطهاد اليهود ، ومن ثم فليست هناك مسألة
يهودية فى المجتمع الاشتراكى .

ويرى جلاشر أن اليهودى ينبغى أن يحول جهده لا إلى تأسيس
دولة فى فلسطين وطرد أهلها العرب منها واضطهادهم فيها ، بل إلى

" Anti - semitism and the Jewish Question" by I. (١)
Rennab.

الانضمام إلى الطبقات المضطهدة الأخرى في المجتمعات التي يعيش فيها اليهود ، وخلق جبهة قوية اشتراكية ضد الرأسمالية والإمبريالية والبورجوازية، وهى النظم التي تقوم على الاضطهادات وتقسيم الطبقات واستغلال المضطهدين .

وفى كتاب « دولة إسرائيل . مركزها وسياساتها » الذى أصدره الاتحاد السوفيتي ، يرى المؤلفان أن الحركة الصهيونية تمثل شكلا من أشكال الإيديولوجية القومية للبورجوازية اليهودية الغنية ، المرتبطة بشكل وثيق بالإمبريالية والاضطهاد الاستعماري لشعوب آسيا وأفريقيا . إن الصهيونية وقد ربطت نفسها بالرأسمالية الأمريكية والغربية ، وبالتكتيكات الإرهابية اليهودية ، هاجمت الدول العربية المجاورة لإسرائيل ، وهددت الحركة الليبرالية القومية لشعوب الشرق الأوسط . ولا جدال أن واجب الماركسين يقضى فى هذا الموقف بمساعدة شعوب آسيا وإفريقيا على سحق القوى اليهودية الرجعية .

وتتناقض الحركة الاشتراكية والحركة الصهيونية ، لأن الصهيونية تعتمد فى دعم إسرائيل على فقراء اليهود . وكان هرتزل ^(١) مؤسس

(١) تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) يهودى مجرى المولد ، عمل صحفيا ومراسلا لمجلة Neu Frei من باريس وعاصر القضية المعروفة باسم قضية دريفوس أو « القضية L' Affaire » والتي بسببها قال أنه رأى أن اندماج اليهود فى مجتمعاتهم مستحيل وبدأ يفكر فى إيجاد حل للمشكلة اليهودية ، وفى =

الصهيونية يرى في البروليتاريا اليهودية المتوهرة في العالم عنصرا أساسيا من عناصر تكوين إسرائيل ، فبينما يرى تحرير البروليتاريا اليهودية في العالم بتوطينها في إسرائيل، ترى الماركسية والاشتراكية أن تحرير البروليتاريا عموما هو في تحرير المجتمعات من سيطرة

= سنة ١٨٩٦ نشر كتابه « الدولة اليهودية » ولم تكن ثقافته ثقافة يهودية ومن ثم لم يفتخر فلسطين أرضا للدولة اليهودية ولم يطالب بأن تكون العبرية لغة الدولة ، ولكن حركة عشاق صهيون التي أسلفنا الحديث عنها أصرت في المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ على اختيار فلسطين ، وتحدث هرتزل عن استعمار قبرص أو العريش أو أوغندا « ولكن الاجتماع كان عن فلسطين . وأسس هرتزل صحيفة للمؤتمر « Die Welt العالم » والشركة اليهودية للتعمير ، وفاوض السلطان عبد الحميد وبريطانيا وألمانيا وروسيا ، وكتب رؤياه في كتاب « الأرض القديمة الجديدة » سنة ١٩٠٢ وتركه وصية للحركة ، وعرضت بريطانيا عليه أوغندا ، وقبل هرتزل ولكن اليهود عارضوه ، وكان أقواهم معارضة وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ، ولم يتحمل هرتزل صدمة فشله ومات بالقلب سنة ١٩٠٤ ودفن بفينا ونقلوا رفاته سنة ١٩٤٩ إلى القدس بعد قيام دولة إسرائيل .

أما دريفوس فكان ضابطا يهوديا فرنسيا اتهموه بالتجسس لألمانيا وسجن ، ولكنهم اكتشفوا براءته بالصدفة وأثيرت قضيته من جديد وشفلت الرأي العام الفرنسي وكتب أميل زولا إلى أنهم l'accuse سنة ١٨٩٨ ووجه خطابه إلى فيليكس فور رئيس الجمهورية ونشره في صحيفه الفجر ، وقدم المفكرون عريضة لرئيس الجمهورية وقعها ٣٠٠ شخص منهم أناتول فرانس ومارسيل بروسست تطالب بإعادة النظر في القضية .. وفي ١٨٩٩ استقدم دريفوس من جزيرة الشيطان وقدم إلى المحاكمة من جديد وبرئ وأعطى وسام الليجيون نونير . (الحقني)

الرأسمالية والبرجوازية والإمبريالية .

ويذكر تيودور هرتزل أن اليهود الموسرين سيجدون في قيام إسرائيل خلاصاً من البروليتاريا اليهودية التي سيساعدونها على الهجرة إلى إسرائيل . ويذكر أن التجارب قد برهنت على أن الضغط السكاني اليهودي ينعكس على ردود الفعل ضد يهود الطبقة الوسطى ، لذلك تعمل الصهيونية على إزاحة القطاعات اليهودية الفقيرة من بلادها لإتاحة فرص أكثر أمام الأغنياء لكي يعيشوا حياة هادئة مطمئنة ، فيما لواقع اختيارهم على البقاء في بلدانهم الأصلية.

وتؤدي هجرة اليهود الفانضين أيضاً إلى تخفيض نوعين من التنافس الذي يواجهه أغنياء اليهود : التنافس الكامن الذي قد يبرز من جراء قيام قطاع من البروليتاريا اليهودية برفع نفسه إلى مستوى الطبقة الوسطى ، والتنافس المسيحي . فالنوع الأول سوف يحد منه ، إن لم يتم منعه ، كنتيجة للهجرة . أما التنافس الثاني فسوف يتضاءل لأن المسيحيين سيشعرون بالارتياح عندما يخف الضغط اليهودي في المجتمع . وبناء عليه سوف يشعرون بدرجة أقل بوجود منافسيهم من اليهود ، ويتوقعون في الوقت نفسه أن يتناقص عددهم طالما ستتابع

عملية الهجرة ويستمر سيرها^(١) .

فهناك إذن تحالف بين الصهيونية والبورجوازية اليهودية والعالمية عموماً ضد البروليتاريا اليهودية بقصد تهجيرها وتخليص المجتمعات منها لصالح البورجوازيين ، وهو ما يتناقض كل التناقض مع الحركة الاشتراكية العالمية .

ويحاول هرتزل إقناع الرأى العام العالمى بحسنات قيام دولة إسرائيل ، فيقول إن الهجرة البروليتارية اليهودية سوف تؤدى إلى قيام هجرة مسيحية لملء المراكز الشاغرة ، ويقول إن الأسواق اليهودية فى مرحلة متأخرة من مراحل الحركة القومية اليهودية ستصبح تحت تصرف الطبقة الوسطى المسيحية فتضعف المنافسة اليهودية كلما ازداد عدد يهود الطبقة الوسطى الذين تجتذبهم أسواق الدولة اليهودية النامية . هكذا تظهر بوضوح الصلة المباشرة بين إنجاح الفكرة القومية اليهودية وبين مصلحة الطبقة الوسطى المسيحية فى أسواقها الخاصة .

ويقول هرتزل إن زيادة الهجرة اليهودية تزيد الفرص أمام التوظيف والاستخدام المسيحى ، وستسعى العمالة المسيحية لملء

(١) ص ١٦ عوامل تكوين إسرائيل بقلم إنجلينا الطو منشورات منظمة تحرير فلسطين - مركز الأبحاث .

مراكز العمل اليهودية الشاغرة في البلدان المسيحية ، وستحول دون هجرة هذه الطاقة إلى بلدان أجنبية سعياً وراء الوظيفة والعمل . وكذلك سوف يحتاج المستوطنون اليهود ، وخاصة خلال المراحل الأولى لنموهم القومي إلى كل من البضائع الاستهلاكية والمنتجات التي يترتب عليهم استيرادها من الأسواق الأوروبية . وهنا يجب الاعتماد على عنصر الطلب هذا في توسيع الأسواق ، وبالتالي في إتاحة المزيد من الفرص أمام المسيحيين . وقد يعتمد اليهود المستوطنون خلال مرحلة متأخرة من تطورهم إلى توجيه رساميلهم المتراكمة لتوظيفها في البلدان التي هاجروا منها . ويقول هرتزل بهذا الصدد « سوف يبتهج الرأسماليون اليهود لتوظيف أموالهم في الأماكن التي يكفون أحوالها السائدة ، وبينما نجد المال اليهودي الآن يتم إخراجه من البلدان بسبب الاضطهاد القائم وإغراقه في المشاريع الغربية النائية ، فإنه سوف يعود ليتجه مجدداً صوب بلدان العالم الغربي من جراء هذا الحل السلمي ، وسوف يساهم بنوره في رفع مستوى تلك البلدان التي بارحها اليهود » .

ووعده هرتزل بأن تكون الدولة اليهودية لصالح أوروبا ، ومعثة للحضارة الأوروبية في الشرق الأوسط ، حيث سيكون اليهود في إسرائيل جزءاً من السد الأوروبي في وجه آسيا ، ومركزاً طليعياً

للمدنية ضد البربرية^(١) ، أى بمثابة معرض قائم دائم لخدمة المصالح الأوروبية^(٢) .

(هذا التحالف الصهيونى الإمبريالى ، لا يعنى بالنسبة للصهيونية تحقيق دولة إسرائيل فقط . وفى ذلك يقول بن جوريون^(٣) فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٨ « إننى أعتبر المقدمة الكبرى الرئيسية فى صميم تفكيرنا بأجمعه، لابل فى حركتنا وسياستنا، ما يلى : أن الدولة ليست هدفاً فى حد ذاتها ، بل هى وسيلة إلى هدف . والهدف هو الصهيونية^(٤) ، والصهيونية تعنى دائماً توسيع رقعة الأرض ، والغزو والاستيطان، ووسيلتها إلى ذلك الإحياء التاريخى العسكرى، فإذا كانت دولة إسرائيل على الدوام فى حالة حرب ، فإن ذلك يرجع إلى كون إسرائيل بالواقع دولة حرب ، وليس المفهوم المتطور لإنشاء ما يسمى فى إسرائيل بالجندى المستوطن سوى إحدى الوحدات التى تمثل عملية الاستعمار الصهيونى بأجمعها ، يعنى لا تعلق سياسة تجميع المنفيين كونها دعوة لتكثير وحدات المستوطنين الجنود ومضاعفة عددهم » . وقد خاطب ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل أعضاء

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥ .

(٤) بن جوريون يتطلع إلى الورداء (بيرلمان نيويورك)

المجلس الصهيونى العام المنعقد فى القدس فى مارس سنة ١٩٦٤
فقال :

« ينبغي علينا منذ الآن أن نرسم الخطط للمليون الرابع والخامس ،
من أين ومتى يأتون ، وماذا سيكون مصير الشعب اليهودى فى
الشتات ؟ ولكى تتمكن إسرائيل من الاستمرار فى تأدية رسالتها يجب
أن يكون هناك توسع دائم فى سكانها . غير أن المسألة ليست مجرد
إيجاد ثلاثة ملايين أو حتى خمسة ملايين يهودى فى الدولة ، فمهمتنا
لا تنتهى عند هذا الحد ، وهذه ليست نهاية الرؤيا الصهيونية » إن
رسالتنا التاريخية تتحقق بالوجود والقوة ^(١) . وهكذا تغدو مسألة
تحقيق « الرسالة الصهيونية » وتأديتها مشروطة بـ « الوجود »
و « القوة » ، أى الاستيطان والقوة العسكرية ، وهما اللذان يعتمدان
بذورهما على معدل الهجرة .

إن المهمة القومية التى تضطلع بها دولة إسرائيل - ألا وهى جمع
شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى إسرائيل -
إن تلك المهمة تستدعى هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد
(٣٠ سنة) ، وعلى الدولة الإسرائيلية أن تؤمن الأحوال الطبيعية لحياة

(١) عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية ص ٣٩ .

هؤلاء السكان من المهاجرين .. ولذا فإن مهمتنا هي احتلال الأراضي العربية وتوطيد سيطرتنا عليها ، ووضع ثرواتها المادية في خدمة اليهود في إسرائيل «^(١) .

« النقب وجزيرة تيران وجزيرة صنافير وشبه جزيرة سيناء ومنطقة قناة السويس : إن امتلاك إسرائيل لهذه المناطق سيؤمّن لنا استخداما غير محدود للنطاق لخليج العقبة وميناء إيلات ، وسيضع في خدمتنا الموارد البترولية التي ستمدنا بسبعين ألف طن من البترول سنوياً ، كما سيمكننا من استخدام الإمكانات التجارية التي تنطوي عليها قناة السويس . إن تلك الإمكانات يجب أن تدر علينا ما بين ١٠ و ٢٠ مليون دولار سنوياً ، بينما سيدر علينا ميناء إيلات ١٠ مليون دولار سنوياً . وإن حرباً يجب ألا تدور أكثر من ثلاثة أشهر على أكثر تقدير هي حرب شأنها أن تتفق وتنسجم مع متطلبات إسرائيل الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية . لذا يجب أن يضع الجيش الإسرائيلي خطة يمكن لإسرائيل أن تنهى بها الحرب في خلال مدة الأشهر الثلاثة »^(٢) .

(١) دولة إسرائيل : ك . إيفانوف ، ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ وعوامل تكوين إسرائيل ص ١٠٩

من ذلك نرى أن الفلسفة الاقتصادية للصهيونية فلسفة تتنافى مع المبادئ الاشتراكية التي لا تؤمن بالحرب ولا تقوم على التوسع والغزو . وهي فلسفة تقوم على إخضاع العمال للسيطرة العسكرية ، ونواتها « الجندي - العامل » ، ويتم بواسطتها تحويل البروليتاريا اليهودية إلى وضع مستقر ، أى تصفية التصورات الاشتراكية فى عقول الطبقات اليهودية العاملة . وفى الاشتراكية يكون دور التجديد الاجتماعى من نصيب طبقة خاصة هى البروليتاريا ، بينما يبدو أن هذا الدور قد أعطى للهستدروت فى الصهيونية التطبيقية أو ما دعواها بالاشتراكية العنصرية . فالهستدروت كطبقة خاصة فى حد ذاتها ، برزت بمثابة العمود الفقرى لاقتصاد الحركة الصهيونية وطلبة البناء الصهيونى . ويعرف بن جوريون الهستدروت كالآتى :

« ليست الهستدروت نقابة عمالية ، ولا هى حزب سياسى ، ولا هى تعاونية أو جمعية لتبادل المنفعة ، مع أنها تقوم بنشاط فى جميع هذه الحقول . إنها أكثر من كل ذلك . الهستدروت هى اتحاد شعب يقوم ببناء موطن جديد و دولة جديدة وشعب جديد ومشاريع ومستوطنات جديدة . وحضارة جديدة . إنها اتحاد للمصلحين الاجتماعيين لا تعتمد جذوره على بطاقة العضوية الخاصة ، بل إلى المصير المشترك

والمهام المشتركة لجميع أعضائها في الحياة وفي الموت «^(١) .

وهكذا نجد أن الهستدروت تمثل العنصر الأساسي في النظام الاقتصادي الناشئ للدولة الصهيونية ، فهي تمثل الطبقة التي تزود ذلك النظام بإطاره التركيبي . وعلاوة على ذلك تعكس الهستدروت عنصر القوة الذي يسيطر على إسرائيل الآن ، وقد يتوصل إلى حكم الدولة اليهودية . ولكن الحكومة مع ذلك تحتل المرتبة الأولى . وتسيطر على النظام الاقتصادي والحكومة معا الاعتبارات العسكرية ، وعندئذ تبدو الاشتراكية المطبقة في الهستدروت والمزارع الجماعية الإسرائيلية (الكيبوتز) بمثابة أداة لخدمة الأغراض التوسعية لإسرائيل . ورغم ما يبدو من وجود عدد من الأحزاب السياسية في إسرائيل ، وما يظهر من ذلك من دلائل ديمقراطية ، فإن الهستدروت تمثل الجهاز التوتاليتاري (جهاز الحزب الواحد) ، الذي يضم كل الأحزاب وبسيطر على الفكر الأيديولوجي للحكم في إسرائيل ، فالهستدروت إشتراكي الشكل ، عنصرى المضمون : إنه جهاز نازي آخر لخدمة أغراض الدولة التوسعية العنصرية والعسكرية .

إن الفلسفة الاقتصادية الصهيونية فلسفة ضد الاشتراكية .



(١) الحركة العمالية في إسرائيل من ١٨٣ وعوامل تكوين إسرائيل من ١٣٥ .

برونو باور

ولقد كتب كارل ماركس فى المسألة اليهودية . وكان من الطبيعى أن يكتب فيها ، فسيجموند فرويد^(١) ، المفكر النفسى اليهودى ، كتب فيها ، وكذلك أينشتاين المفكر العلمى .

وكارل ماركس ، من أصل يهودى ، وداجويرت روزن مترجم مقال المسألة اليهودية لكارل ماركس ، انتقد ماركس بشدة ، لأنه رغم يهوديته ، تحامل على اليهود . والمسألة اليهودية مسألة عالمية ، جرت إلى الكتابة فيها كثيراً من المفكرين ، ومنهم برونو باور .

وباور^(٢) مفكر ألمانى شغلته النواحي الدينية وكتب كثيراً فى المسيحية ، وهو ملحد ويرى أن المسيحية ديانة مفهومها هيلينى (أى مفهوم يستمد أصوله الفكرية من الثقافة اليونانية) وليس يهوديا . وكان باور من الهيجليين ، وفصلته الحكومة الألمانية من منصب الأستاذية فى الجامعة لأرائه الإلحادية .

وكتب باور فى المسألة اليهودية ، وتساعل عن حقيقة الدعوة اليهودية التى تطلب تحرير اليهود من الاضطهاد السياسى ، ومن

Moses and Monotheism : Sigmund Freud. (١)

ترجمة دكتور عبد المنعم الحفنى بعنوان : (النبى موسى ورسالة التوحيد) .
(٢) دائرة المعارف البريطانية الجزء الثالث .

الحرمان من الحقوق السياسية فى ألمانيا .

ويرى باور أن الاضطهاد الذى يعانیه اليهود ، هو اضطهاد يعانیه المجتمع الألماني كله ، لأن الدولة مسيحية الجوهر ، وينبغى فصل الدولة عن الدين ، وتأمين علمانية الدولة ، وأن يعمل اليهود على نقد المسيحية واليهودية معا ، وتخليص الدولة منهما : لتقوم الدولة العلمانية مثل الولايات المتحدة الأمريكية .



كتاب ماركس

وانتقد ماركس كتاب باور ، لأن المشكلة ليست مشكلة الديانة المسيحية أو اليهودية ، ولكنها مشكلة الاضطهاد الاجتماعى المتمثل فى سيطرة الرأسمالية والبورجوازية على الفكر السياسى وبناء الدولة ، وعندئذ يكون واجب المواطن فى الدولة الكفاح من أجل إلغاء سيطرة المال على الدولة وعلى المواطن . ويرى ماركس أن مضمون الديانة اليهودية الضرورة المادية والمتاجرة ، وأن إله اليهود الدنيوى هو المال . وتحرير اليهود يكون بتحريرهم من المال ، من اليهودية ، أى يكون بتحرير المجتمع من سيطرة المال والمتاجرة ، وتنظيم المجتمع بحيث تُلغى الشروط السابقة لقيام المتاجرة بالربا ، وبالتالي تلغى إمكانية

المتاجرة بالربا : إن هذا الإلغاء يجعل وجود اليهودى واليهودية مستحيلا . والمال هو جوهر المجتمعات الرأسمالية والبورجوازية وحياة الإنسان وعمله ، عمله الذى أغترب عنه وهذا الوحش هو الذى سيطر على الإنسان الآن ويستعبده .

ألقوا هذه المتاجرة ، وقوضوا سيطرة المال على المجتمعات ، تنحل المسألة اليهودية بالنسبة لليهود ، وبالنسبة للمجتمعات التى تشكو من اليهود كظاهرة مرضية ، والتى من أجلها قامت حركة العداء للسامية واضطهاد اليهود .

هذا هو موجز فكر كارل ماركس ، ودلالاته هي نفس الدلالات التى تحدثنا عنها فى الحل السوفيتى للمسألة اليهودية ، وفى تصادم الاشتراكية والصهيونية : أن على المجتمعات الأوروبية أن تقبل اليهود فيما بينها ، وأنه لا مجال للحل الصهيونى لأنه حل توسعى عسكرى إمبريالى ، وأن على المجتمع الدولى أن يتخلص من سيطرة الإمبريالية والرأسمالية والبورجوازية ، ففى تخلصه منها تحرير لنفسه من كافة الاضطهادات ، ومنها اضطهاد اليهود للمجتمعات المتمثل فى سيطرة المال - إله اليهود الدنيوى - على هذه المجتمعات .

وأقد كتب ماركس « عن المسألة اليهودية » سنة ١٨٤٤ ، وظهر مقاله

فى إحدى الصحف ، وكان وقتها يعمل مساعدا لرئيس تحريرها . وكانت آراء ماركس لم تتبلور بعد فى نظريته الاشتراكية ، ولكنه كان بسبيله إلى الاستقرار نهائيا . وكتب لينين عن مقالات ماركس فى مقال بعنوان « بيلوجرافيا الماركسية » يصف بحوث ماركس التى نشرها سنة ١٨٤٢ يقول :

« هنا نلاحظ علامات تحول ماركس من المثالية إلى المادية ، ومن الديمقراطية الثورية إلى الاشتراكية » وتم هذا التحول بشكل حاسم خلال اشتغاله بالجريدة السابقة . وبينما نجد أن ماركس فى مقاله عن المسألة اليهودية ليس هو بعد ماركس الذى كتب البيان الاشتراكى سنة ١٨٤٨ ، فإنه مع ذلك كان قد بلور مفهومه عن المادية التاريخية ، ورأى ماركس أن حل المسألة اليهودية لا يمكن أن يتحقق إلا فى نظام اجتماعى أرقى من النظام الذى كان سائدا فى زمانه ، والذى حله فيما بعد فى كتابه « رأس المال » .

وكتب ماركس مقاله فى فترة تحول ألمانيا من الإقطاع إلى الرأسمالية ، وأدرك ماركس وظيفة اليهود الاجتماعية والتجارية فى المجتمع الإقطاعى ، وأدرك الرابطة المهمة التى تربط اليهود بالطبقة البورجوازية الصاعدة ، والتى كانت تناضل فى ذلك الوقت للوصول إلى السلطة ، وأدرك أن المجتمع البورجوازى الجديد فى ألمانيا يقوم

على وظيفة اجتماعية ظل اليهودى يمارسها لقرون عديدة ، واستخلص من كل ذلك أن الوظيفة الاجتماعية . لليهود قد أبقت عليهم أحياء طوال كل هذا الزمن ، مع أنهم كما يقول توينبى من بعد ، شعب مندثر ، شأنهم شأن الأشوريين والأموريين والكنعانيين والكلدانيين ، وكانت وظيفة اليهود هذه وظيفة لها أهميتها فى مجتمعات الماضى ، واستمدوا منها بعضاً من سمات هذه المجتمعات الأيديولوجية المميزة لها ، الأمر الذى جعل ماركس يقول قولته الشهيرة « إن اليهودية عاشت ليس رغماً عن التاريخ ، لكن بسبب التاريخ » .

ويعنى هذا الكلام أن الظروف الرأس مالية والبورجوازية أتاحت لليهود فرصة السيطرة على المجتمعات عن طريق المال والتملك ، وحيث توجد الرأس مالية لابد أن توجد اليهودية ، لأن جوهر اليهودية هو المتاجرة بالمال والربا . لذلك فنحن نرى أن تمرد اليهود بالاتحاد السوفيتى الآن ، وطلبهم للهجرة منه ، ومن دول أوروبا الشرقية ليس سبب سوى أن اليهودى لا يمكن أن يوجد إلا حيث توجد الرأس مالية ، الأمر الذى بلغ باليهود الذين رفض الاتحاد السوفيتى تهجيرهم أن يشرع بعضهم إلى اختطاف الطائرات ، وأدى ببعضهم إلى المحاكمات وإلى التآمر لقلب نظام الحكم .

وإذا كان ماركس قد طالب بإلغاء الملكية تماماً ، فنحن لسنا مع

ماركس . نحن اشتراكيون ، ولكن للاشتراكية أعلاما كثيرة ، ولقد اخترنا طريق الاشتراكية العربية الإسلامية التى تناسب ظروفنا والمرحلة الحضارية التى نعيشها ، وتلتزم بثقافتنا الوطنية وديننا ، ومع ذلك نحن مع ماركس أن على كل مجتمع أن يلتزم باليهود الموجودين فيه ، ونرى لذلك أن تهجير الاتحاد السوفيتى لليهود ، أو سماحه بتهجيرهم ، تكتيك يتناقض مع الاستراتيجية الاشتراكية ، وأخلى الاشتراكية من مضمونها ، ويثبت أنه لم يستطع أن يعيد تعليم وتربية المواطن السوفيتى اليهودى ، ويصهر اليهود فى الاتحاد السوفيتى ، ويقنعهم بالتخلى عن المضمون والسمت اليهوديين ، ولو فعل الاتحاد السوفيتى والتزم بما يقوله ماركس لما كانت هناك هجرة يهودية منه ومن دول أوروبا الشرقية .



المسألة اليهودية

كارل ماركس

الجزء الأول

يهود ألمانيا يطالبون بالتححر ، فبأى تححر يطالبون ؟ إنه التححر
المدنى والسياسى .

ويرد عليهم « برونو باور » ^(١) بأنه : لا يوجد بألمانيا متحرون
سياسيا ، ونحن ، الذين لسنا يهودا ، لسنا أحرارا ، فكيف نستطيع
أن نحرككم ؟ إنكم ، أيها اليهود لأنانيون حين تطالبون لأنفسكم ،
لكونكم يهودا ، بتححر خاص ، وكان يجب عليكم بالأحرى أن تعملوا ،
بوصفكم ألمان ، على تححر ألمانيا سياسيا ، وأن تعملوا ، بوصفكم
بشرا ، على تححر الجنس البشرى . وكان يجب عليكم أن تنظروا إلى
هذا النوع المتميز من الاضطهاد الذى هو اضطهادكم ، ليس بوصفه
شنوذا عن القياس ، وإنما بوصفه تأكيدا لهذا القياس .

ويتساءل « باور » : أم أن اليهود يطالبون ببساطة أن يوضعوا على
قدم المساواة مع رعايا الدولة المسيحيين ؟ وفى هذه الحالة فإنهم
يعترفون بالدولة المسيحية . باعتبارها الدولة المشروعة ، ويعترفون

١) المسألة اليهودية لبرونو باور

بأنهم نظام من نظم الاستعباد السائدة . وحينئذ نسألهم لماذا لا يرضون بنيرهم الخاص فى الوقت الذى يرضون فيه بالنير العام ؟ ولماذا ينبغى أن يبدى الألمان اهتماما بتحرير اليهود ، ما دام اليهود لا يهتمون بتحرير الألمان ؟

« إن الدولة المسيحية ليس فيها إلا الامتيازات ، واليهودى نفسه فى هذه الدولة يتمتع بامتياز وهو كونه يهوديا ، وهو كيهودى له الحقوق التى ليست للمسيحيين . فلماذا يطالب اليهودى بحقوق لا يملكها ، حقوق يتمتع بها المسيحيون وحدهم لكونهم مسيحيين فى دولة مسيحية ؟

« واليهودى بمطالبته بالتحرر من الدولة المسيحية ، يطلب أن تتخلى الدولة المسيحية عن تحاملها الدينى ، فهل يتخلى ، هو اليهودى عن تحامله اليهودى ؟ وإن كان الجواب بالنفى فهل يحق له إذن أن يطالب شخصا آخر بالتنازل عن دينه ؟

« إن الدولة المسيحية ، بحكم جوهرها كدولة مسيحية ، لا تستطيع أن تحرر اليهودى » . ولكن « باور » يضيف « أن اليهودى بحكم جوهره كيهودى ، لا يستطيع أن يتحرر ما بقيت الدولة المسيحية وما بقى اليهودى يهوديا ، فكلاهما لا يمكن أن يصلح لمنح التحرر ، والآخر لتلقيه .

« إن الدولة المسيحية لا تستطيع أن تقف من اليهود إلا موقف الدولة المسيحية ، أى الدولة التى فى استطاعتها أن تمنح امتيازات ، وهى استنادا إلى إمتيازها هذا ، تسمح بعزل اليهودى عن سائر رعاياها ، ولكنها تجعله يحس بثقل الجماعات التى عزلته عنها ، وبشكل حاد خصوصا لأنه يمثل المعارضة الدينية فى مواجهة الديانة السائدة . ولكن اليهودى ، رداً على ذلك ، لا يستطيع إلا أن يقف من الدولة موقف اليهودى ، أى موقف الأجنبى ، فهو يعارض القومية الحقيقية بقوميته الوهمية ، ويضاد القانون الحقيقى بقوانينه المتخيلة ، ويظن أن انفصاله عن سائر البشرية له ما يبرره ، ولا يشارك فى حركة التاريخ ، كمسألة مبدأ ، وينتظر ليحقق لنفسه مستقبلا ليس بينه وبين مستقبل الإنسانية شئ مشترك ، ويعد نفسه فردا من الشعب اليهودى ، والشعب اليهودى عنده هو الشعب المختار .

« وإذن فبأى حق تطالبون أيها اليهود بالتححر ؟ أهو بسبب دينكم ؟ إن دينكم هو العبود للدين الدولة . فهل بسبب أنكم مواطنون فى الدولة ؟ إن الدولة لا يوجد بها مواطنون حقيقيون . فهل بوصفكم بشرا ؟ إنكم لستم بأكثر بشرية من أولئك الذين تستجدون بهم .



الدين والدولة

وبعد أن نقد « برونو باور » الأوضاع القائمة والطول المقترحة لها ، تناول المسألة اليهودية من زاوية جديدة ، وتسأل : ماهى طبيعة اليهودى الذى يسعى إلى التحرر ، وماهى طبيعة الدولة التى ستحرره؟

وأجاب « باور » بأنه نقد العقيدة اليهودية ، وحل التعارض الدينى بين اليهودية والمسيحية ، وفسّر لنا شخصية الدولة ، وفعل ذلك كله بجرأة ووضوح وإتقان وعمق ، وبعبارة قد تميزت بالدقة والمتانة وحافلة بالمعنى .

فكيف يقدم « باور » حله لمسألة اليهود ؟ إن صياغته للمسألة نفسها تتضمن الحل ، فتحليل المسألة اليهودية يمدنا بحل ، ويمكن تلخيص حله كالآتى :

« يجب أن نحرر أنفسنا أولا قبل أن نستطيع أن نحرر الآخرين ، وإن أشد أشكال التعارض بين اليهودى والمسيحى لهو التعارض الدينى ، فكيف نحل التعارض الدينى ؟ والجواب بجعله مستحيلا . وكيف نجعل التعارض الدينى مستحيلا ؟ والجواب بإلغاء الدين . ومنذ اللحظة التى لا يعود اليهودى والمسيحى يريان فى دين كل منهما إلا

درجات متفاوتة من درجات تطور العقل الإنساني ، وإلا جلود ثعابين قد ألقى بها التاريخ ، لن يجد كلاهما نفسه فى علاقة دينية فى مواجهة الآخر ، وإنما سيجدان نفسيهما فى علاقة نقدية علمية ، يؤلف العالم فيها بينهما ، فى وحدة واحدة ، وتنحل من خلالهما التناقضات فى العالم بالعلم نفسه .

وتقوم أمام اليهودى الألمانى خاصة مسألة قصور وجود تحرر سياسى فى دولة من المعروف أنها مسيحية ، ولكن « باور » يرى أن للمسألة اليهودية من وجهة نظره أهمية عامة مستقلة عن ظروف تواجد اليهودى فى ألمانيا . وهذه الأهمية العامة هى مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة ، ومسألة التناقض بين الارتباطات الدينية وبين التحرر السياسى ، وعندئذ يصبح التحرر من الدين شرطاً يفرض نفسه على السواء ، على اليهودى الذى يطالب بالتحرر السياسى لنفسه ، وعلى الدولة التى من واجبها أن تحرره وتحرر نفسها .

ويقولون ، واليهودى نفسه يقول « حسن جدا ، لكن اليهودى لا يجب أن يُحرر لأنه يهودى ، وليس لأنه صاحب مبادئ أخلاقية متفوقة . والأصح أن اليهودى سيقف إلى جانب المواطنين الآخرين ويكون واحدا منهم رغم أنه يهودى ويريد أن يظل يهوديا ، ويعنى ذلك أنه يهودى وسيظل يهوديا برغم أنه مواطن يعيش فى ظروف إنسانية

عظيمة : وطبيعته المحدودة كيهودى تنتصر دائما فى النهاية ، حتى على التزاماته الإنسانية والسياسية ، وتبقى الفكرة الخاطئة ، حتى مع أنها تخضع لمبادئ عامة . ولكنها إذا كانت تبقى ، فإنها إذن تُخضع كل ما عداها ..

« إن اليهودى بوسعه أن يبقى يهوديا فى الحياة السياسية بمعنى سوفسطائى فقط ، فى الظاهر فقط ، وبالتالي فإن كان يريد أن يبقى يهوديا فإن هذا الظاهر يصبح واقعا وينتصر ، ويعنى هذا أن حياته فى الدولة لن تكون إلا مظهرا ، وأنها استثناء من الواقع والقاعدة » .

ولننظر من ناحية أخرى كيف يحدد « برونو باور » مهمة الدولة حيث يقول :

« لقد قدمت لنا فرنسا مؤخرا ^(١) فيما يتعلق بالمسألة اليهودية ، وكما تفعل من ناحية أخرى فى كل المسائل السياسية الأخرى ، مشهدا من مشاهد الحرية فى الحياة . ولكن فرنسا تخرق حريتها فى القانون وتعلن هذه الحرية مجرد مظهر ، فى حين أنها من الناحية الأخرى تكذب قانونها الحر بما تمارس من أعمال » .

(Judenfrage, p . 64)

(١) مناقشات مجلس النواب لسنة ١٨٤٠ .

« إن الحرية العامة في فرنسا لم تعلن بعد كقانون ، وكذلك المساواة اليهودية لم تحل هناك ، لأن الحرية القانونية التي تجعل كل المواطنين متساويين ، مقيدة في الحياة التي ما تزال الامتيازات الدينية تحكمها وتسيطر عليها . وأيضاً لأن نقص وجود الحرية في الحياة الواقعية ينعكس في القانون ويرغمه على التمييز بين المواطنين الأحرار في طبيعتهم ، فنقسمهم إلى مضطهدين ومضطهدين » .

(Judenfrage, p. 65)

وإذن فمتى تُحل المساواة اليهودية بالنسبة لفرنسا ؟

« إن اليهودي سيكف عن كونه يهودياً ، إذا كان قانونه لا يحول بينه وبين ممارسته واجباته تجاه الدولة ونحو مواطنيه ، مثلاً إذا ذهب إلى جلسات مجلس النواب يوم السبت وشارك في مناقشاته العامة . وعلى كل فالواجب أن تُلغى كل الامتيازات الدينية ، ويعنى ذلك إلغاء الاحتكارات التي تحصل عليها الكنائس ، فإذا كان بعض الناس يعتقدون ، أو إذا كانت الأغلبية الساحقة منهم تعتقد في واجبهم تجاه تأدية الفروض الدينية ، فتأديتهم لهذه الفروض يجب أن يُمنح لهم ، على اعتبار أنه أمر من أمورهم الخاصة تماماً

(Judenfrage P. 65)

« ولأن يكون هناك دين عندما لا يكون هناك دين له امتيازات . جردّ الدين من قوته ، بوصفه شيئاً متميزاً ، يصبح لا وجود له » (Judenfrage. p 66) وكما أن السيد « مارتن دي ثور » ، أحس أن الاقتراح بإغفال ذكر يوم الأحد فى القانون ، هو إعلان بأن المسيحية لم يبق لها وجود ، فإنه يمكن كذلك استجابةً لهذا المبدأ نفسه ، الإعلان بأن قانون السبت بمثابة إعلان بأن اليهودية قد قضى عليها .

(Judenfrage p, 71)

وإذن « فبثرونو باور » يطالب من جهة بأن يتخلى اليهودى عن اليهودية ، والإنسان عموماً عن الدين كى يحقق لنفسه التحرر السياسى . ومن جهة أخرى ، وهذه نتيجة منطقيّة ، فإن الإلغاء السياسى للدين يعنى إلغاء الدين بوصفه هذا . والدولة التى تعتنق الدين تعد دولة لم تبلغ بعد مرتبة الدولة الحقيقية الواقعية . « والواقع أن الفكرة الدينية تقدم فعلاً للدولة ضمانات . ولكن لأية دولة ؟ لأى نوع من أنواع الدول ؟ » .

(Judenfrage. P 97)

بين اليهودية والمسيحية

إننا كما رأينا هنا نجد أن « باور » لا ينظر إلى المسألة اليهودية من جانب واحد ، فلا يكفي أن نسأل : من الذى يجب أن يقوم بالتححر ، ومن الذى يجب أن يتحرر ؟ فعلى النقد أن يجيب على سؤال ثالث وهو : ما هو نوع التححر المقصود ؟ وأية شروط يستوجبها هذا النوع من التححر ؟ وليس إلا تحليل التححر السياسى نفسه هو الذى يقدم تحليلًا نهائيًا للمسألة اليهودية ، وحلها الصحيح فى موقعها من « المسألة العامة لعصرنا » .

ولأن « باور » لا يرفع المسألة إلى هذا المستوى فإنه يقع فى متناقضات ، وهو يشترط شروطًا لا تقوم على أساس من جوهر التححر السياسى ، ويعالج مسائل لا تدخل فى القضية التى يبحثها ، ويحل قضايا لا تمس المسألة التى يعالجها . وعندما يقول « باور » عن خصوم التححر اليهودى « إن خطأهم هو افتراضهم أن الدولة المسيحية هى وحدها الدولة الحقيقية ، وأنها لا تخضع للنقد نفسه الذى يتعرض له اليهود (Judenfrage p. 3) ، نجد أن خطأ « باور » يتمثل فى إخضاع « الدولة المسيحية » وحدها للنقد ، وليس « الدولة عمومًا » ، وفى فشله فى تحرر أمر علاقة التححر السياسى بالتححر الأكبر للبشرية ، حتى أنه يقدم شروطًا لا يمكن تفسيرها إلا بخلط غير نقدى

بين التحرر السياسى والتحرر الإنسانى عامة ، فإذا كان « باور » يسأل اليهود : هل لكم الحق ، ووجهة نظركم على ما هى عليه ، فى المطالبة بالتحرر السياسى ؟ فإننا نسأل على العكس : هل لبطل التحرر السياسى الحق فى مطالبة اليهود بإلغاء اليهودية ، ومطالبته الإنسانى بإلغاء الدين ؟ »

إن المسألة اليهودية تنهض كمشكلة بصورة تختلف من دولة لأخرى ، باختلاف الدولة التى يعيش فيها اليهودى ، ففى ألمانيا حيث لا توجد دولة بالمعنى السياسى ، أى دولة من حيث هى دولة ، نجد المسألة اليهودية عبارة عن مسألة تتعلق بالديانة فقط ، ونجد أن اليهودى يقف موقفا يتعارض دينيا مع الدولة التى تعتقد فى المسيحية كأساس لها . مثل هذه الدولة دولة لاهوتية مغرقة فى لاهوتيتها exprofesso ، وعندما نوجه النقد لها فإن النقد ينهض فى المحل الأول ضد اللاهوت . وبما أن الدولة هنا فيها المسيحية واليهودية معا ، فالنقد سيوجه للثنتين ، للاهوت المسيحى واللاهوت اليهودى . ورغم أننا نكون فى الحالتين داخل نطاق النقد إلا أننا كذلك لا نخرج عن نطاق نقد اللاهوت .

اليهودية والدستور

أما في فرنسا حيث الدولة دستورية ، فالمسألة اليهودية هناك تتخذ شكل النظام الدستوري ، أى شكل عدم اكتمال التحرر السياسى . ولأن الدولة الفرنسية ما تزال تحتفظ لنفسها بمظهر دينى ، ولو أنه مظهر تافه متناقض لما يسمى « دين الأغلبية » ، فإن اليهود فيها يظل وضعهم إزاء الدولة هو نفس وضع المعارضين للدين واللاهوت .

ولكن المسألة اليهودية لا تفقد مدلولها اللاهوتى إلا فى دول أمريكا الشمالية الحرة ، ولا تتخذ الشكل العلمانى إلا هناك ، أو على الأقل فى بعض هذه الدول . ولا تتضح علاقة اليهودي ، وبصورة عامة علاقة الإنسان المتدين ، بالدولة ، فى كل صفاتها وخصائصها ، إلا حيث توجد الدولة السياسية فى شكلها التام . وتحليل هذه العلاقة يكف عن أن يكون لاهوتيا حالما تكف الدولة عن الوقوف من الدين موقفا لاهوتيا ، ومنذ اللحظة التى تستبدل فيها الدولة هذا الموقف الدينى بموقف سياسى ، فحينئذ يتحول النقد إلى نقد الدولة السياسية . وعند هذه النقطة ، حيث تكف المسألة عن أن تكون لاهوتية ، يكف نقد باور عن أن يكون نقدا .

« لا يوجد فى الولايات المتحدة دين للدولة ، ولا يوجد بها دين

أعلنته الأغلبية لنفسها ، ولا تتفوق هناك عقيدة علي عقيدة ، فالدولة مستقلة عن كل الأديان » . بل تتكون أمريكا الشمالية من ولايات « لا يفرض دستورها عقائد دينية ، ولا ينص على ممارسة عبادة من العبادات كشرط للامتيازات السياسية » . ورغم ذلك « فالاعتقاد في الولايات المتحدة أن الإنسان الذي لا دين له هو إنسان لا يمكن أن يكون شريفا » . ومع ذلك تظل أمريكا الشمالية بلادا ذات نزعة دينية كما يجمع على ذلك بومون وتوكثيل والإنجليزى هاملتون . على أن دول أمريكا الشمالية لا تخدمنا إلا كمثال . والمسألة : ما هي علاقة التحرر السياسى الكامل بالدين ؟ فإذا كنا فى بلاد التحرر السياسى الكامل لا نجد الدين فقط ، وإنما نجد كذلك « وجوده الجديد القوى » فإن ذلك ليدل على أن وجود الدين لا يتعارض مع اكتمال الدولة ، ولكن حيث أن وجود الدين هو وجود النقص ، فإن أصل هذا النقص لا يمكن أن يبحث عنه إلا فى جوهر الدولة نفسه . ونحن لم نعد نرى العقل فى الدين ، بل نرى أنه ظاهرة علمانية ، ولهذا نفسر الضيق الذهنى الدينى للمواطنين الأحرار بضيقهم الذهنى العلمانى . ونحن لا نطلب منهم أبداً أن يلغوا حدودهم الدينية من الوقت الذى يلغون فيه حدودهم العلمانية ، فنحن لا نحول المسائل العلمانية إلى مسائل لاهوتية بل إننا نحول المسائل اللاهوتية إلى مسائل علمانية . وبعد أن انحل

التاريخ لمدة طويلة من خلال الوهم سنحل نحن الوهم فى ضوء التاريخ . إن مسألة علاقات التحرر السياسى بالدين تصبح بالنسبة إلينا مسألة علاقات التحرر السياسى بالتحرر البشرى .

ونحن ننقد الضعف الدينى للدولة السياسية ، بنقد الدولة السياسية ، بصرف النظر عن نواحى ضعفها الدينية فى بنائها العلمانى . ونحن نضفى على التناقض بين الدولة وبين أى دين من الأديان ، وليكن اليهودية مثلاً ، تعبيراً إنسانياً يكشف التناقض بين الدولة والدين وعناصر علمانية معينة ، ويتحوّل التناقض بين الدولة والدين بصورة عامة إلى تناقض بين الدولة ومقوماتها بصورة عامة .

والتحرير السياسى للإنسان اليهودى وللإنسان المسيحى ، والإنسان المتدين عموماً ، إنما هو تحرير الدولة من اليهودية والمسيحية والدين عموماً . والدولة بشكلها الخاص وبالنمط الخاص بجوهرها بوصفها دولة ، تتحرر من الدين بتحررها من دين الدولة ، أى بعدم اعترافها بأى دين ، ويتأكدها ذاتها بشكل محض ، بوصفها دولة فقط . والتحرر السياسى من الدين ليس هو التحرر بصورة مطلقة وكلية من الدين ، لأن التحرر السياسى هو النمط المطلق الكلى للتحرر الإنسانى .

التحرر السياسى والتحرر الانسانى

تتجلى حدود التحرر السياسى فى واقع إمكان تحرر الدولة من العقبات التى تصادفها دون أن يستطيع الإنسان أن يتحرر من الدولة ، وإمكانية أن تكون الدولة حرة دون أن يكون الإنسان فيها حراً . «وباور» يسلم هونفسه ضمناً بهذا ، بربطه التحرر السياسى بهذا الشرط ، حيث يقول : « وإذ يجب إلغاء كل الامتيازات الدينية . فيجب كذلك إلغاء الاحتكارات التى تمثلها الكنيسة المتميزة ، إذا كان البعض ، أو حتى الغالبية الكبرى ، ما يزال يعتقد فى وجوب ممارسة الفروض الدينية ، فيجب أن يكون لهم حق ممارسة هذه الفروض بوصفها شأنًا من شئونهم الخاصة تماماً » ، فالدولة تستطيع أن تكون قد تحررت من الدين ، حتى ولو كانت الغالبية الكبرى من الناس فيها ما تزال تؤمن بالدين ، أى أن إيمانها به يكون مسألة خاصة بهم ومن شئونهم البحتة .

ولكن موقف الدولة ، وخاصة الدولة الحرة ، إزاء الدين ، ليس إلا موقف الناس سكان الدولة إزاء الدين. ولكن الإنسان عندما يتحرر من عقبة ما ، فإنه يتحرر بأن يرتفع فوق هذه العقبة ، بصورة مجردة غير كاملة وجزئية . وهو يتحرر من جهة أخرى عن طريق الدولة ، بأن يتحرر سياسياً ، وهو يتحرر بواسطة وسيط هو فى الواقع وسيط

ضرورى . وأخيراً فالإنسان حين يعلن نفسه ملحداً ، بواسطة الدولة أى حين يعلن أن الدولة دولة ملحدة ، يعنى أنه ما يزال محدداً من وجهة النظر الدينية ، لأنه لا يعترف بأنه ملحد إلا عن طريق الدولة أى الوسيط الذى يتوسط بين الإنسان وبين حريته . وكما أن المسيح هو الوسيط الذى يحمله الإنسان كل ما يتخيله فى نفسه من ألوهية ، وكل ما يعتقده لنفسه من حدود دينية ، فكذا الدولة ، فهى الوسيط الذى يحمله الإنسان كل إنسانيته ، وكل ما يعتقده لنفسه من حدود إنسانية .

إن التفوق السياسى للإنسان على الدين يدخل ، عموماً ، ضمن جميع سوءات التسامى السياسى ، فالدولة ، بوصفها دولة ، تُلغى الملكية الخاصة مثلاً . ويصدر الإنسان قراراً سياسياً بإلغاء الملكية الخاصة ، من اللحظة التى تقرر فيها أن حقوق الإنسان فى أن يمارس الانتخاب ، وأن ينتخبه غيره ، لا ترتبط بالضرائب التى يدفعها من يمارس عملية الانتخاب ، كما يقرر ذلك فى عدد كبير من ولايات أمريكا الشمالية . ويفسر « هاملتون » ذلك تفسيراً صحيحاً من وجهة النظر السياسية ، فيقول « لقد انتصرت الجماهير على الملكية وعلى الثورة » . ثم ألا تكون الملكية الفردية قد ألغيت فعلاً حين يكون الذى لا يملك هو المشرّع الذى يضع القوانين لذلك الذى يملك ؟ إن الضريبة

على حقوق الترشيح والانتخاب هي آخر الوسائل السياسية للاعتراف بالملكية الفردية .

ولكن إلغاء الملكية الفردية سياسيا ، لا يلغى الملكية الفردية نفسها ، ولكنه يفترضها أيضا . إن الدولة تلغى على طريقتها فوارق النسب والطبقية والثقافة والعمل الخاص ، بإعلانها أن النسب والطبقية والثقافة والعمل الخاص فوارق غير سياسية ، وأن كل فرد من الشعب بصرف النظر عن هذه الفوارق يتمتع على قدم المساواة بالسيادة الشعبية .

ومع ذلك فالدولة تترك الملكية الخاصة والثقافة والعمل الخاص تعمل على طريقتها ، أى من حيث هي ملكية خاصة وثقافة وعمل خاص . وهى إذ تتركها موجودة تعنى كونها دولة سياسية ولكنها حين تغلب كليتها تعارض هذه العناصر . وعلى ذلك يكون هيجل^(١) صحيحا حين يحدد العلاقة بين الدولة السياسية والدين فيقول « لكى تستطيع الدولة أن توجد فى شكل واقع واع وأخلاقى للعقل ، عليها أن تتميز عن

(١) هيجل : فردريش هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف ألماني يعتبر من الفلاسفة المحوريين ، حيث يبدأ به الفكر الحديث ، والحقيقة أن الفكر من بعد هيجل هومعه أو ضده ولا ثالث له . وبعد هيجل قامت مدرستان - المدرسة اليمينية والمدرسة اليسارية ، وماركس تتلمذ على المدرسة اليسارية .

شكل السلطة والإيمان . ولكن هذا التمييز لا يظهر إلا بمقدار نجاح
العنصر الكنسى نفسه فى الفصل بين نفسه وبين الدولة . ولم تكتسب
الدولة فكرة الشمول وشكلها ، وأن توجد ، إلا على هذه الصورة ،
وبارتفاعها فوق كل الكنائس ، وهذا صحيح فعلا ، لأن الدولة لم
تتشكل ، بوصفها شيئا كليا ، إلا على هذا النحو وبارتفاعها فوق
العناصر الجزئية المكونة لها .

إن الدولة السياسية الكاملة هى فى جوهرها الحياة الروحانية
للإنسان التى تتعارض مع حياته المادية . وتستمر افتراضات أنانية
هذه الحياة المادية فى البقاء فى المجتمع المدنى خارج الدائرة
السياسية ، ولكن استمرارها هو خاصة من خصائص المجتمع
البورجوازى . ويعيش الإنسان فى ازدهار الدولة ، فى الفكر وفى
الواقع ، ويعيش حياة مزدوجة سماوية وأرضية ، فى اتحاد يجمع
سياسيا بين الحياتين ويكونه ككائن عام . وهو يوجد ككائن عام فى
المجتمع المدنى ، ويعمل كمجرد إنسان من العامة ، ويرى فى سائر
الناس مجرد وسائل ، وينحط هو نفسه فيكون مجرد وسيلة بالنسبة
للغير ، ويصبح لعبة فى قبضة القوى الغريبة عنه . والدولة السياسية
بالنسبة للمجتمع المدنى ، كمثال روحانية السماء بالنسبة إلى الأرض .
وهى تتعارض مع المجتمع المدنى كما تتعارض روحانية السماء مع

متطلبات الأرض ، وتنتصر الانتصار نفسه الذى ينتصر فيه الدين على الدنيا . والدولة السياسية مرغمة على الاعتراف بالمجتمع وإعادة إنشائه وإفساح المجال لى تخضع هى نفسها له . والإنسان فى واقعه المباشر فى المجتمع المدنى كائن دنيوى ، ولكنه وهو فى المجتمع المدنى ، حيث يعد نفسه ويعدده الآخرون بمثابة فرد واقعى ، ظاهرة فى غير مكانها . أما فى الدولة فالإنسان ، على العكس ، له قيمة بوصفه كائنا بشريا ، وهو عضو خيالى من سيادة خيالية ، مجرد من حياته الواقعية والفردية ، وملئ بكلية غير واقعية .

والمعارضة التى يجدها الإنسان بين الدين الخاص الذى يمارسه بوصفه مواطنا ، وبين بقية المواطنين بوصفهم مشتركين معه فى وحدة واحدة وهى الدولة ، ترجع إلى المعارضة القائمة بين المجتمع المدنى وبين الدولة السياسية . وبالنسبة إلى الإنسان الذى يقال له الإنسان البورجوازى « ليست الحياة فى الدولة إلا مظهراً أو خروجاً عن القاعدة وشنوذا عن الجوهر » . والحقيقة أن البورجوازى مثل اليهودى ، لا يستمر فى البقاء فى الحياة السياسية إلا من خلال السفسطة والمغالطة ، مثملاً لا يستمر المواطن فى البقاء فى الدولة إلا بسفسطة اليهودى مع المواطن اليهودى ، أو بسفسطة البورجوازى مع المواطن البورجوازى . ولكن هذه السفسطة لا ترجع إلى شخص

المواطن نفسه . إنها ليست سفسطة شخصية ، ولكنها سفسطة الدولة السياسية نفسها . والفرق بين الإنسان الدينى والمواطن ، هو فرق بين التاجر والمواطن ، وبين صاحب الملك والمواطن ، وبين الفرد والمواطن . وكذلك التناقض الذى يقوم بين الإنسان الدينى والإنسان السياسى ، هو نفسه التناقض بين البورجوازي والمواطن ، وهو التناقض نفسه الذى يقوم داخل الفرد نفسه بين عضويته للمجتمع البورجوازي أو كونه بورجوازيا فى مجتمع بورجوازي ، وبين جلد الأسد السياسى الذى يضعه على نفسه .

هذا التناقض العلمانى ، الذى تقبى المسألة اليهودية فيه فى النهاية ، يعنى علاقة الدولة السياسية بمقوماتها ، سواء كانت هذه المقومات عناصر مادية كالمملكية الخاصة ، أو عناصر فكرية كالثقافة والدين . وهذا التناقض بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، وبين الدولة السياسية والمجتمع البورجوازي ، وبالاختصار هذه التناقضات الدنيوية يتركها « باور » وشأنها ويهاجم صيغتها الدينية . « إن أساس المجتمع البورجوازي هو بالضبط الحاجة التى تضمن للمجتمع البورجوازي وجوده وتؤمن له ضرورته . وهذا الأساس هو الذى يعرض وجود المجتمع البورجوازي لأخطار متصلة ، ويذكر فيه عنصرا غير موثوق به . وينتج هذا الخليط ، المتصل والمتغير دائما ، والمكون من

الفقر والغنى والشقاء والازدهار - ينتج التغيير»^(١) .

ويمكن أن نتبين حقيقة « المجتمع البورجوازي » عند « باور » (ص ٨ - ٩) ، فهو يقوم على مبادئ فلسفة الحل لهيجل . والمجتمع البورجوازي عنده تعارضه الدولة السياسية . ونحن نعترف بقيام المجتمع البورجوازي بالضرورة لأننا نعترف كذلك بقيام الدولة السياسية بالضرورة .

والخلاصة أن التحرر السياسى هدف عظيم ، ولكنه ليس آخر شكل للتحرر الإنسانى ، إلا أنه آخر الأشكال الممكنة التى يبلغها التحرر الإنسانى فى إطار النظام العالمى الحالى ، وليكن مفهوما أننا نتحدث هنا عن التحرر السياسى الواقعى ، أى التحرر الذى يحدث عمليا وفى الواقع .

إن الإنسان يتحرر سياسيا من الدين باستخلاص الدين كعنصر من عناصر الحق العام ، وجعله من عناصر الحق الخاص بالفرد . والدين ينتقض كونه روح الدولة حيث يعمل الإنسان بوصفه كائناً فرداً ومشاركاً فى العمل مع الآخرين ، ومن ثم يصبح الدين روح المجتمع البورجوازي فى حدود الأثنية ، ويصبح الروح التى تدفع الجميع إلى

(١) ص ٨ .

الدخول فى حرب مع الجميع bellum omnium contra omnes .
إن الدين عندما صار مسألة تهم الفرد ومن خصوصيته ، لم يعد جوهر الجماعة ، وإنما صار علماً يتميز به البعض ، فهو قد صار جوهر وروح التميز . لقد أصبح الدين ما كان فى الأصل . صار تعبيراً عن انفصال الإنسان عن الجماعة وعن نزوعه عن ذاته ، وعن الناس الآخرين . لم يعد إلا تأكيداً للنزعات الخاصة والهوى الشخصى .

وانجزاء الدين لا متناهيأ تبعا للانهاثية معتنقيه ، فى أمريكا مثلا ، يضى على الدين شكل القضية الخاصة التى تهم الأفراد ، ولا تهم المجتمع . الأمر الذى يجعلنا نبعد الدين عن التحرر السياسى ، فانجزاء الإنسان إلى إنسان عام وإنسان خاص ، وفصل الدين عن الدولة فى المجتمع البورجوازى ، ليس درجة من درجات التحرر السياسى ، وإنما هو اكتمال التحرر الذى لا يلغى ولا يحاول أن يلغى واقع التدين عند الإنسان .

وانجزاء الإنسان إلى يهودى ومواطن ، وإلى بروتستانتى ومواطن ، وإلى إنسان متدين ومواطن ، هذا الانجزاء ليس ضد أن يكون الإنسان مواطناً ، وليس ضد التحرر السياسى : وإنما هو التحرر السياسى نفسه ، والطريقة السياسية التى يتخلص بها الإنسان من الدين . ومن الطبيعى أن الدولة تستطيع بل وينبغى لها (فى جهود تؤكد فيها الدولة

السياسية بوصفها دولة سياسية انبثاقها العنيف من المجتمع البورجوازي ، ويحاول فيها التحرر الإنسانى أن يتم فى شكل تحرر شخصى سياسى) أن تواصل سيرها إلى حد إلغاء الدين ومحوه ، مثلما تفعل إزاء الملكية الخاصة ، فتصل إلى الحد الأعلى معها بمصادرتها ، وإلى فرض ضريبة تصاعدية عليها ، أو إلى مصادرة الحياة نفسها بالجيلوتين . وفى اللحظات التى تعى فيها الدولة ذاتها بصورة خاصة ، تحاول الحياة السياسية خنق مقوماتها الأولية ، وهى المجتمع البورجوازي وعناصره ، وأن تقيم نفسها بوصفها الحياة الإنسانية الحقيقية ، غير المتناقضة للإنسان بوصفه عضواً فى الجنس البشرى . ولكن الحياة السياسية لا تستطيع أن تبلغ هذه النهاية إلا بنقضها نقضا عنيفا لمقومات وجودها نفسه ، وإعلانها الثورة فى حالة دائمة ، وإلا كان على الدراما السياسية أن تنتهى بإحياء الدين والملكية الخاصة ، وكل عناصر المجتمع البورجوازي ، تماماً مثلما تنتهى الحرب بالسلم .

الدولة الدينية والدولة الديمقراطية

إن الدولة المسيحية الكاملة ليست هى الدولة المسيحية المزعومة التى تعترف بالمسيحية ديناً رسمياً لها وتستبعد كل الديانات الأخرى . إن الدولة الكاملة على الأصح هى الدولة المتحدة ، الدولة الديمقراطية التى

تضع الدين بين مقومات المجتمع البورجوازي الأخرى ، وتستبعده بهذه الصفة . أما الدولة التي ما تزال دولة دينية ، وتجعل من المسيحية مهنة رسمية ، فإنها دولة لم تنجح بعد في تحقيق الأساس الإنساني الذي ليست المسيحية بالنسبة له إلا تعبيراً دنيوياً منمقاً . والدولة المسيحية المزعومة ببساطة ليست دولة لأن الديانة المسيحية لا تعبر عن نفسها في المخلوقات الإنسانية ، بل هو الأساس الإنساني في تلك الديانة هو الذي يعبر عن نفسه في المخلوقات الإنسانية . والدولة المسيحية المدعاة هي نفى أو ملاءمة مسيحية للدولة ، وليست بأي حال من الأحوال التحقيق السياسي للمسيحية . والدولة التي تستمر في الاعتراف بالمسيحية كدين ، لا تعترف بها بعد في شكل سياسي ، لأنها ما تزال تتصرف إزاء الدين تصرفاً دينياً ، وهذا يعني أنها ليست تحققاً حقيقياً للأساس الإنساني للدين ، لأنها ما تزال نتيجة لغير الواقع ، نتيجة للشكل المتخيل للنواة الإنسانية .

والدولة المسماة بالدولة المسيحية دولة غير كاملة ، ولأنها غير كاملة تعتبر الدين المسيحي مكماً لنقصها ، ومن ثم يصبح الدين عندها وسيلة ضرورية لوجودها ، وهكذا تتناقض مع نفسها وتصبح دولة منافقة ، فهناك فرق بين أن تعتبر الدولة الدين أساساً لها وبين أن تعتبره وسيلة لوجودها ، فإما أن تعتبر الدولة الكاملة الدين شرطاً

ضمن شروط تواجدها ، وذلك بسبب النقص الملزم لجوهرها العام ،
وإما أن تنادى الدولة الكاملة بالدين أساسا لها بسبب النقص الملزم
لوجودها الخاص ، أى من حيث هى دولة ناقصة . وفى هذه الحالة
الأخيرة يصبح الدين سياسة ناقصة ، وفى الحالة الأولى يظهر فى
الدين نقص السياسة الكاملة.

إن الدولة المسماة بالدولة المسيحية فى حاجة إلى الدين المسيحى
ليكملها كنولة . أما الدولة الديمقراطية أى الدولة الحقيقية فلا تحتاج
إلى الدين لتكمل نفسها سياسيا ، بل هى تستطيع أن تسقط الدين
من حسابها ، لأن الأساس للدين متحقق فيها بصورة دنيوية . أما
الدولة المسماة بالدولة المسيحية فهى على العكس تقف من الدين موقفا
سياسيا ، وتقف من السياسة موقفا دينيا ، فإذا كانت تحط فى
الظاهر من شأن الأشكال السياسية فإنها لتحط كذلك من شأن الدين
من ناحية الشكل .

وحتى يتسنى للقارئ أن يفهم بشكل أفضل هذا التعارض فى
شكل الدولة المسيحية سنناقش البناء الذى يقدمه لنا « برونويور » عن
الدولة المسيحية والذى أقامه كنتيجة لدراسة الدولة الألمانية المسيحية .

يقول « باور » : تداول الناس من زمن قريب جدا وفى مناسبات

عديدة أقوال الإنجيل التي تعارض فكرة الدولة وذلك بغية التدليل على استحالة وجود الدولة المسيحية أو عدم وجودها ، لأنها لا تتماشى معها إلا إذا كانت تريد أن تتحل انحلالا كاملا . « ولكن الرد النهائي على هذه الأقوال أقل ، إذ بماذا تطالب هذه الأقوال الإنجيلية ؟ إنها تطالب بالخضوع لسلطة الوحي وإلغاء الدولة ومقومات الحياة الدنيوية . ولكن الدولة المسيحية هي الأخرى تطالب بنفس الشيء وتحققه ، لأنها تمثلت روح الإنجيل ، وإذا كانت لا تعبر عن ذلك بنفس التعبيرات التي يستخدمها الإنجيل ، فذلك لأن الدولة ببساطة تعبر عن هذه الروح بصيغ أساسية ، أى بأشكال قد استعارتها حقا من النظام السياسي لهذا العالم . ولكن الدولة المسيحية إذ تستعير الأشكال السياسية يرغمها البعث الدينى على الخضوع له ، وبذلك تستحيل الأشكال السياسية إلى مجرد مظاهر تبتعد عن الدولة . وهذا الابتعاد يستخدم فى نفس الوقت لتحقيق الأشكال السياسية للدولة » ^(١) .

ويستطرد « باور » إن شعب الدولة السياسية لا يعود شعبا ، لأنه فقد إرادته الخاصة . وهذا الشعب مع ذلك له وجوده الحقيقى متمثلا فى رئيس الدولة الذى يدين الشعب بالخضوع له ، ولكن هذا الرئيس من ناحيته ، بحكم أصله وطبيعته ، غريب عن الشعب لأنه مفروض عليه

من قبل الإله دون أن يكون للشعب ذاته أدنى رأى فى الموضوع .
والشعب لم يصنع قوانينه الخاصة به ، والقوانين عبارة عن كلمات
موحى بها ، والذي أوحى بها يحتاج إلى وسطاء متميزين يتوسطون
بينه وبين الشعب وينقلونها إليه . ومن ثم يستحيل الشعب هذه الكتلة
الجماعية ، إلى مجموعة من النواثر التى تتمايز على بعضها
البعض ، والتى تتكون وتتحد بالمصادفة وحدها ، وتختلف بين بعضها
البعض من حيث مصالحها وأهوائها الخاصة وأحكامها المسبقة ،
وذلك تنفصل عن بعضها البعض ^(١) . ولكن باور هو نفسه الذى
يقول بعد ذلك « وإذا كان يجب على السياسة أن لا تكون غير الدين ،
فعليها أن تكون سياسة ، تماما مثلما أن تنظيف الأوعية ، إذا كان يعد
عملا مفيداً ، فينبغى أن لا ننظر إليه على أنه من شئون البيت » ^(٢) .
لكن الدين فى الدولة الألمانية المسيحية مسألة من « شأن الاقتصاد »
تماما كما يكون ما هو من اختصاص الاقتصاد دينا ، بمعنى أن
سلطة الدين فى الدولة الألمانية المسيحية هى دين السلطة .

ولكن فصل ، « روح » الإنجيل عن « حرفه » عمل لا دينى ، والدولة
التي تنطق الإنجيل بحروف السياسة وبحروف غير حروف الروح

(١) ص ٥٦ .

(٢) ص ١٠٨ .

القدس تحرق المقدسات ، إن لم يكن في نظر الناس فعلى الأقل من وجهة النظر الدينية . والدولة التي تعلن الإنجيل دستوراً لها والمسيحية قانوناً أعلى ينبغي أن نعارضها بأقوال الكتاب المقدس ، ذلك لأن الكتاب المقدس مقدس حتى في أقواله . ومثل هذه الدولة كالتقديرات البشرية المشيدة عليها تنطوي على تناقض مؤلم لا يمكن حله ، من وجهة نظر الضمير الديني عندما يحيل إلى كلمات الإنجيل التي لا تتفق الدولة معها بل ولا يمكن أن تتفق معها إلا إذا أرادت أن تتحل انحلالاً كاملاً . ولماذا لا تريد الدولة المسيحية أن تتحل وتنبو انحلالاً كاملاً؟ إن الدولة المسيحية الرسمية أمام ضميرها الخاص هي صيرورة المستحيل أن تتحقق ، وهي لا يمكن أن تثق في حقيقة وجودها إلا بالكذب على نفسها ، ولذلك تبقى في نظر نفسها موضعاً للشك ومشكلة مستعصية . ويحق للنقد إذن بصورة مطلقة أن يرغم الدولة المرتكزة على الكتاب المقدس على مراجعة ضميرها وزعزعة ثقتها فيه حتى لا يعرف هذا الضمير من بعد إن كان هو فعلاً واقعاً أم أنه مجرد وهم . وكذلك يحق للنقد أن يُدخل الغايات الدنيوية للدولة المرتكزة على الكتاب المقدس ، هذه الغايات التي يقف منها الدين موقف الستار الذي يخفيها ، أن يُدخلها في منازعات لا حل لها مع شرف ضميرها الديني ، هذا الشرف الذي يرى في الدين غاية

للعالم . وهذه الدولة المرتكزة علي الكتاب المقدس لا يمكنها أن تغفل من أحزانها الباطنة إلا إذا أصبحت عنصراً من العناصر المعاونة للكنيسة الكاثوليكية . وتكون الدولة عاجزة أمام هذه الكنيسة التي من رأيها أن السلطة العلمانية ينبغي أن تخضع لها خضوعاً تاماً ، وكذلك تقف الدولة العلمانية التي تدعى أنها التجسيد لسيادة الروح الديني موقف العاجز أمام الكنيسة الكاثوليكية .

والشيء الذي له قيمة في الدولة المسماة بالدولة الدينية ليس هو الإنسان ، وإنما هو التخلي عن الجوهر الإنساني . والإنسان الوحيد الذي يحسب حسابه وهو الملك يختلف عن الناس الآخرين نوعياً ، وهو من ناحية أخرى كائن ما يزال دينياً مرتبطاً مباشرة بالسماء والإله ، والعلاقات الموجودة هنا ما تزال علاقات تقوم على الإيمان ، فالروح الديني لم يصبح في الواقع بعد علمانيا .

ولكن الروح الديني لا يمكن أن يصبح في الواقع علمانياً ، فأي شيء هو في الواقع شكل من أشكال تطور الفكر الإنساني ، إلا إذا كان من خارج هذه الدنيا ، وعلى ذلك فالروح الديني لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الفكر الإنساني ، الذي هو تعبير عن الروح الديني ، قد تطور إلى الدرجة التي يظهر بها الروح الديني متجسداً في شكله الديني . وهذا هو ما يحدث في الدولة الديمقراطية ، فما

يصنع أساس هذه الدولة ليس هو المسيحية وإنما هو الأساس
الإنسانى للمسيحية . وفيها يصبح الدين بمثابة الضمير المثالى للناس
فيها وليس الضمير الدنيوى ، وذلك لأن الدين يكون بمثابة الشكل
المثالى لدرجة تطور إنسانية تتحقق فيه .

وأعضاء الدولة السياسية دينيون بحكم ازدواجية الحياة الفردية
والحياة الاجتماعية ، أو بحكم المجتمع البورجوازي والحياة
السياسية . وهم دنيويون بمعنى أن الإنسان فى الدولة السياسية يعتبر
الحياة السياسية القائمة خلف فرديته الخاصة حياته الحقيقية . وهم
دينون بمعنى أن الدين هنا هو روح المجتمع البورجوازي ، وهو
التعبير عن كل ما يفصل ويبعد بين الإنسان والإنسان . والديموقراطية
السياسية مسيحية بمعنى أن الإنسان ، كل إنسان هو فيها كائن
مسيطر ، كائن أسمى ، ولكنه الإنسان غير المثقف وغير الاجتماعى ،
الإنسان فى وجوده العارض ، كما هو ، الإنسان الذى أفسدته كل
التنظيمات الاجتماعية ، والذى فقد ذاته وتخلّى عن جوهره ، ووضّع
تحت وطأة ظروف ومقدمات غير إنسانية ، وبالاختصار ، هو الإنسان
الذى لم يصبح كائناً إنسانياً حقيقياً .

إن حلم المسيحية وما ابتدعته بخيالها هو أن يسود الإنسان ، ولكن
الإنسان لا يسود لأنه مجرد إنسان موجود ، فواقع الإنسان خلاف

ذلك ، وما لا يحققه الإنسان فى الخيال والحلم لم يصبح فى الديمقراطية مبدأ دنيويا .

والضمير الدينى واللاهوتى يظهر لنفسه فى الديمقراطية الكاملة أكثر دينية ولاهوتية بمقدار ما يبدو هو فى ظاهره ، أى بمقدار ما هو دون مدلول سياسى وأغراض دنيوية ، وبمقدار ما هو شأن من شئون القلب ، معادٍ للدنيا ، ومعادٍ لطبيعة العقل المحدود ، وموغل فى الحياة الأخرى التى يعتبرها الحياة الحقيقية التى تقوم لا على العقل ولكن على الهوى والاعتباطية . هنا تصل المسيحية إلى التعبير عن مدلولها الدينى الشامل تعبيرا عمليا ، لأن مفاهيم العالم الأكثر تناقضا تتجمع كلها فى شكل المسيحية ، وخاصة أن المسيحية لا تفرض على المؤمنين بها التوفر على الدين بعينه دون غيره ، وإنما هى تفرض على أصحابها أن يكون للإنسان دين ، وليكن هذا الدين أى دين ، ذلك لأن الوجدان الدينى يتلذذ بغنى التناقض الدينى وتنوعه .

طريق التحرر الجذرى من اليهودية

أوضحت أن التحرر السياسى من الديانات يسمح للدين بالاستمرار وإن كان هذا الدين الأخير لا يعود ديناً متميزاً ، وليس التناقض الذى يجد تابع أحد الأديان نفسه فيه ، بين كونه تابعا لهذا الدين وكونه

مواطننا تابعاً لدولة ، إلا جزءاً من التناقض الشامل بين الدولة السياسية وبين المجتمع البورجوازي . وعندما تكتمل الدولة المسيحية فلن يكون ذلك إلا عندما تعرف الدولة المسيحية نفسها بأنها دولة ، وتتغاضى عن دين أتباعها . ومع ذلك فتحرر الدولة من الدين ليس هو تحرر الإنسان تحراً واقعياً من الدين .

وإذن فلا يمكن أن نقول مع « باور » لليهود : إنكم لن تستطيعوا أن تتحرروا سياسياً دون أن تتحرروا من اليهودية تحراً جذرياً ، بل نقول لهم : أنتم لأنكم لا تستطيعون أن تتحرروا سياسياً دون أن تنفصلوا إنفصالاً كاملاً مطلقاً عن اليهودية ، فإن تحرركم السياسى لا يمكن أن يكون تحراً إنسانياً . فإن كنتم تريدون أن تتحرروا سياسياً دون أن تحرروا أنفسكم إنسانياً فإن النقص والتناقض ليسا صفتين فيكم وحدكم ولكنهما أيضاً فى جوهر مقولة التحرر السياسى . فإن كنتم متشبعين بهذه المقولة فإنكم تشاركون فى الوهم العام . وإذا كانت الدولة الإنجيلية تتصرف كدولة مسيحية إزاء اليهود ، برغم أنها دولة لإن اليهودى عندما يطالب برغم أنه يهودى ، بحقوق المواطن ، يكون مشتغلاً بالسياسية .

ومن وقت أن يستطيع الإنسان ، برغم كونه يهودياً ، أن يتحرر سياسياً وينال حقوقه كمواطن ، فهل يستطيع أن يطالب بما

يسمى حقوقه إنسانية ؟ يجيب « باور » على ذلك بالنفى . « لأن المسألة تتعلق بمعرفة ما إذا كان اليهودى فى ذاته ، أى اليهودى الذى يعترف بأنه مضطر بسبب جوهره الحقيقى كيهودى أن يعيش للأبد منفصلاً عن الآخرين ، صالماً لتلقى الحقوق العامة الواجبة للإنسان ومنحها لغيره » .

« ولم تُكتشف فكرة حقوق الإنسان بالنسبة إلى العالم المسيحى إلا فى القرن الماضى . وهى حقوق لم يولد بها الإنسان ، بل إنها على العكس تكتسب خلال نضاله ضد التقاليد التاريخية التى درج عليها الإنسان حتى اليوم . وليست حقوق الإنسان منحة تضيفها عليه الطبيعة ، ولا هى نعمة قد وهبها له ما غبر من تاريخ ومضى ، وإنما هى ثمن نضاله ضد الامتيازات التى يتمتع بها البعض والصدق التى تميز البعض بحكم الأنساب والمصاهرات . هذه الامتيازات التى نقلها التاريخ من جيل إلى جيل حتى الآن . وليست هذه الحقوق الإنسانية إلا نتاج الحضارة ، ولا يستطيع أن ينالها ويمتلكها إلا ذلك الذى يستحقها ويكتسبها » .

« فهل يستطيع اليهودى أن يمتلك حقيقة هذه الحقوق الإنسانية ؟
الجواب أن اليهودى طالما أنه باق كيهودى فجوهره المحدود الذى يجعل منه يهودياً سيتغلب بالضرورة على الجوهر الإنسانى الذى كان

يجب أن يربطه بوصفه إنسانا بغيره من الناس . وهذا الجوهر
المحسود الذى يجعله يهوديا يعزله عن غيره الذى ليس يهوديا .
واليهودى يعلن بانفصاله هذا عن الناس أن الجوهر الخاص الذى
يجعل منه يهوديا هو جوهره الحقيقى الأسمى الذى يجب أن يتلاشى
أمامه جوهر الإنسان «^(١) .

ويرى « باور » أن الإنسان عليه أن يضحى « بمبدأ الإيمان » كى
يمكنه أن يستقبل الحقوق للإنسان . ولتناقش قليلا ما هى هذه
الحقوق العامة للإنسان ، ولتناقشها فى شكلها الحقيقى أى الشكل
الذى نجدها عليه عند مبدعيها ، الأمريكيين الشماليين والفرنسيين .
ونحن نجد أن حقوق الإنسان هذه فى جانب منها حقوق سياسية لا
يمكن أن يمارسها صاحبها إلا إذا تواجد فى مجتمع من الناس فى
دولة ، ومضمونها إذن هو المشاركة فى الحياة السياسية العامة وحياة
الدولة ، وعلى ذلك تندرج تحت مقولة الحرية السياسية ، أو مقولة
الحقوق المدنية التى لا تفترض أبداً كما رأينا إلغاء الوضعى المحتوم
للدين ، ولا لليهودية . وإذن يتبقى أمامنا بعد ذلك أن نناقش الناحية
الأخرى من هذه الحقوق الإنسانية من حيث هى مختلفة عن حقوق
المواطن .

(١) ص ١٩ ، ٢٠ .

« ان الإنسان لا ينبغي أن يُضطهد بسبب آرائه حتى ولو كانت دينية » . (إعلان حقوق الإنسان والمواطن سنة ١٧٩١ الباب العاشر)
وتضمن الباب الأول من دستور سنة ١٧٩١ « حرية كل إنسان في ممارسة الديانة التي يحرص عليها » ، بوصف هذه الحرية حقا من حقوقه كإنسان .

ويتضمن إعلان حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٩٣ ، من بين حقوق الإنسان ، المادة السابعة والتي تنص على حرية ممارسة العبادات « وأكثر من ذلك أنه قد قيل في موضوع حق التعبير عن الأفكار والآراء وحق الاجتماع وممارسة العبادة » أن ضرورة تعداد هذه الحقوق تقتض إما وجود الاستبداد وإما وجود ذكراه قريبة » . (دستور سنة ١٧٩٥ الباب الثاني عشر المادة ٣٥٤) .

« إن الناس جميعا قد تلقوا من الطبيعة حقا غير قابل للإلغاء هو حق عبادة إله جلّت قدرته ، حسب ما تمليه عليهم ضمائرهم ، ولا يمكن أن يجبر قانون من القوانين أحدا من الناس على اتباع أى مذهب أو كهنوت ديني ، أو أن يرغمه على إقامة شعائر دين أو اعتناقه ضد رغبته ، ولا تستطيع أى سلطة بشرية بأى حال من الأحوال أن تتدخل في مسائل الضمير وأن تراقب القوى الروحية » (دستور بنسلفانيا الباب التاسع المادة الثالثة) .

وهناك من الحقوق الطبيعية ما لا يمكن التخلي عنه من حيث طبيعته ، لأنه لا يوجد ما يعادلها ويعوض عنها ، ومنها حقوق الضمير » . (دستور نيوهامبشاير - المادتان الخامسة والسادسة - بومون ص ٢١٣ ، ٢١٤) .

ونحن نجد أثراً ضئيلاً من آثار استحالة التوفيق بين الدين وحقوق الإنسان في مفهوم حقوق الإنسان ، لدرجة أن حق الإنسان في الإيمان بدين طبقاً لما يريد ، وأن يمارس فروض هذا الدين الذي آمن به ، تعد بعضاً من حقوق الإنسان ، فامتياز الإيمان هو حق عام من حقوق الإنسان .

ولكن حقوق المواطن يميز بينها وبين حقوق الإنسان . وإننا لنتساءل من هو الإنسان المتميز عن المواطن ؟ إنه ليس سوى عضو المجتمع البورجوازي . ولكن لماذا يسمى عضو المجتمع البورجوازي إنساناً وإنساناً فقط ؟ ولماذا تسمى حقوقه حقوق الإنسان . وبماذا نفسر ذلك ؟ بالعلاقة بين الدولة السياسية والمجتمع البورجوازي ، ويجوهر التحرر السياسي .

ونلاحظ من الأول أن حقوق الإنسان المتميزة عن حقوق المواطن ليست إلا حقوق عضو المجتمع البورجوازي ، أي حقوق الإنسان

الأثنى ، الإنسان المغترب عن الإنسان ، وعن المجتمع . وعبثا يحاول أكثر الدساتير راديكالية مثل دستور سنة ١٧٩٣ أن ينادى بأن « هذه الحقوق (الحقوق الطبيعية والتي لا يمكن إلغاؤها) هي المساواة والحرية والأمن والملكية » (المادة الثانية) .

وفيما تقوم الحرية ؟ « المادة السادسة - الحرية هي القدرة التي يملكها الإنسان على أن يفعل كل ما لا يلحق الضرر بحقوق الآخرين » أو هي طبقا لإعلان حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٩١ « الحرية هي قدرة الإنسان على أن يفعل كل ما لا يلحق الضرر بالآخرين » .

وإذا فالحرية هي الحق في إتيان ما لا يضر بالآخرين . ويحدد القانون الحدود التي يمكن لكل إنسان أن يتحرك في إطارها دون أن يضر بالآخرين ، تماما مثلما تتعين الحدود بين حقلين بأوتاد بينهما . وحرية الإنسان هي حريته كجوهر فرد بمعزل عن الآخرين ومنطوق على نفسه . وإذا فلماذا لا يصلح اليهودي ، كما يقول باور ، لأن تكون له حقوق الإنسان ؟ يقول باور « إن اليهودي طالما أنه باق على يهوديته فالجوهر المحدود الذي يجعل منه يهوديا سيتغلب حتما على الجوهر الإنساني الذي كان من الواجب أن يكون الرابطة التي تربط بينه كإنسان وبين الناس الآخرين » .

ولكن الحرية وهى حق إنسانى لا تقوم على علاقة الإنسان بإنسان والربط بينهما ، ولكنها تقوم على الأصح على الانفصال بين الإنسان والإنسان . والحرية أو حق الحرية هو الحق الذى للإنسان فى هذا الانفصال ، أو حق الفرد المحدد داخل ذاته .

والتطبيق العملى لحق الحرية هو حق التملك ملكية فردية . ولكن فيما يقوم حق التملك ؟

« حق التملك هو حق كل مواطن فى التمتع والتصرف كما يرى فى أمواله ودخله وثمرة عمله وصناعته » (دستور سنة ١٧٩٣ المادة السادسة عشرة) .

وإذاً فحق الملكية هو حق الإنسان فى التمتع بثروته والتصرف فيها كما يشاء دون الاهتمام بالناس ، وبصورة مستقلة عن المجتمع . وهو حقه فى أن يكون أنانياً . وهذه الحرية الفردية وتطبيقها عملياً متمثلاً فى حق الملكية ، هى أساس المجتمع البورجوازى . وهما تبيينان لكل إنسان خطورة هذه الحرية وتطبيقها عند إنسان آخر ، ومن ثم وجوب تقييد هذه الحرية .

وتتبقى بقية حقوق الإنسان وهى المساواة والأمن .

وكلمة مساواة هنا ليس لها مدلول سياسى ، وهى ليست إلا

المساواة فى الحرية التى سبق أن عرفناها : أن كل إنسان هو بمثابة ذرة ترتكز على ذاتها . ويعين دستور سنة ١٧٩٥ مدلول هذه المساواة فيقول « إن المساواة هى تساوى الجميع أمام القانون ، سواء حين يحمى أو حين يعاقب » (المادة الخامسة)

وما هو الأمن ؟ يقول دستور سنة ١٧٩٣ فى تعريفه « إن الأمن هو الحماية التى يضفيها المجتمع على كل من أعضائه لصون حياته وحقوق ملكيته » (المادة الثامنة) .

« إن الأمن هو أسمى مبدأ اجتماعى فى المجتمع البورجوازي ، وهو المفهوم الذى تدور حوله قوانين الشرطة : إن المجتمع كله ليس موجودا إلا كى يضمن لكل من أعضائه صون حياته وحقوقه وملكيته . وحول هذا المعنى يسمى هيجل المجتمع البورجوازي « دولة الحاجة والعقل » .

وكما نرى فإن مفهوم الأمن هنا ليس بكاف ، وهو هنا لا يعنى إلا أنه ضمان على الأصح لأنانية المجتمع البورجوازي .

وإذن لا يوجد أى حق من حقوق الإنسان السابقة تتجاوز أنانية الإنسان ، الإنسان كما هو ، عضو المجتمع البورجوازي ، الفرد المنعزل عن المجتمع والمنطوى على نفسه والذى تعنيه فقط مصالحه

الشخصية والذي يستجيب فقط لأهواء نفسه .

والإنسان كما يتمثل فى هذه الحقوق السابقة لا يمكن أن يكون مخلوقاً اجتماعياً ، بل إن العكس هو الصحيح ، فالحياة الإنسانية من حوله أى المجتمع لا تعدو أن تكون إطاراً خارج الفرد يحدد حريته الأولية . والرابطة الوحيدة التى تجمع بين الفرد والفرد هى الضرورة الطبيعية ، حاجة الفرد والفرد إلى بعضهما لتحقيق مصلحة كل ، المتمثلة فى الاحتفاظ بملكية كل وشخصيهما الأنايين .

وإذن يصبح من الصعب تفسير كيف يمكن أن ينادى شعب من الشعوب مفاخرا (١٧٩١) - عندما يأخذ بأسباب التحرر ويسقط كل الحواجز التى تقف أمام كل أفراد الشعب - بحق الإنسان الأناي المنعزل عن زميله وعن المجتمع ، بل ويعود إلى هذه المنادة فى وقت ليس لإنقاذ الوطن فيه من سبيل إلا بأشد ألوان الإخلاص بطولة ، ويتطلب فيها هذا الإخلاص التضحية بكل منافع المجتمع البورجوازي ومعاقة الأناية كجريمة (سنة ١٧٩٣) . وتغمض المسألة أكثر من ذلك عندما نلاحظ أن التحرر السياسى يجعل من المجتمع السياسى أو المجتمع المدنى مجرد وسيلة لصيانة هذه الحقوق الإنسانية المدعاة ، وحين نلاحظ أن المواطن يُنادى به خادما « للإنسان » الأناي ، وأن الدائرة التى يعمل فيها الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً تهبط إلى

ما دون الدائرة التي يعمل بها بوصفه كائنا فردا . وأخيرا نلاحظ أن الإنسان من حيث هو بورجوازي ، وليس الإنسان من حيث هو مواطن ، هو الذي يُنظر إليه بوصفه الإنسان الحقيقي .

« إن غاية كل تجمع سياسى هو المحافظة على حقوق الإنسان الطبيعية التى لا يمكن إلغاؤها » (إعلان ١٧٩١ المادة الثانية) .

« تقوم الحكومة لتضمن للإنسان التمتع بحقوقه الطبيعية التى لا يمكن إلغاؤها » (إعلان ١٧٩٣ المادة الأولى) وإذا فالحياة السياسية ، حتى فى فترات عنفوان حدائتها ، والتى تدفعها قوة الظروف إلى آخر ما يمكن أن تصل إليه ، هذه الحياة السياسية تفصح عن نفسها على أنها ليست إلا مجرد وسيلة ، وأن غايتها هى حياة المجتمع البورجوازي . وأكثر من ذلك أن هذه الحياة السياسية فى نشاطها العملى الثورى تتناقض بشكل قاضح مع نظريتها ، فمثلا ، على حين أنها تعلن أن الأمن هو حق من حقوق الإنسان ، فإنها تمارس خرق سرية المراسلات ، وعلى حين أنها تعلن ضمان « حرية الصحافة حرية غير محدودة » (إعلان سنة ١٧٩٣ المادة ١٢٢) كنتيجة تترتب على حق الحرية الفردية ، فإنها قد قضت على حرية الصحافة قضاء تاما حين قررت « أن حرية الصحافة يجب أن لا يسمح بها حين تمس الحرية العامة » (« روبسبيرير الشاب » ، « التاريخ البرلماني للثورة الفرنسية »

تأليف « روشيز » و « رو » الجزء الثامن والعشرون ص ١٣٥) . وكل ذلك يعنى أن القول بحق الحرية لا يصبح حقاً فى الوقت الذى يتعارض فيه هذا الحق مع الحياة السياسية ، على حين أن هذه الحياة السياسية ، من الناحية النظرية ، ليست إلا الضمان الذى يكفل حقوق الإنسان الفردى ، ومن ثم ينبغى إيقاف حقوق الإنسان هذه من الوقت الذى تتناقض فيه مع غايتها . ولكن النظرية مع ذلك تعتبر القاعدة ، والتطبيق العملى هو الاستثناء . ولكى يبقى الفعل الثورى العملى هو الوضع الصحيح للعلاقة يتحتم الرد على هذا السؤال : لماذا انقلبت هذه العلاقة فى ذهن المحررين السياسيين ، بحيث أصبحت الغاية وسيلة والوسيلة غاية ؟ وسيظل اضطرابهم هذا مشكلة قائمة مستقرة فى وعيهم من الناحية النفسية والنظرية.

ولكن حل المشكلة بسيط .

فالتحرر السياسى تحليل للمجتمع القديم الذى تركز عليه الدولة والذى لم يكن للشعب فيه أى دور ، وانحلال المجتمع القديم يعنى انهيار سلطة الملك .

والثورة السياسية هى ثورة المجتمع البورجوازى . وكيف كان المجتمع القديم ؟ إن كلمة واحدة تصفه: أنه كان مجتمعاً « إقطاعياً » .

وكان للمجتمع البورجوازي القديم طابع سياسى مباشر ، أى أن مقومات الحياة البورجوازية كالملكية أو الأسرة أو نظام العمل تحولت فى ظل الإمارة أو الطائفة المغلقة أو الطائفة المهنية ، مقومات حياة الدولة . وحددت هذه المقومات فى ظل هذا النظام ، علاقة الفرد بالدولة ، أى أنها حددت الوضع السياسى للفرد ، وهو وضع كان يبعده عن عناصر المجتمع الأخرى . ولم يرفع هذا التنظيم للحياة الشعبية ، فى الواقع ، الملكية إلى مستوى العناصر الاجتماعية ، بل إنه على العكس ، أسرع فى فصلها عن جسم الدولة . وجعل منها مجتمعا خاصا يعيش ضمن المجتمع . ورغم ذلك فقد ظلت الوظائف والمقومات الحيوية للمجتمع البورجوازي سياسية ، أى أنها سياسية بمعنى أنها كانت تفصل ما بين الفرد والدولة . وكانت تحول العلاقة الخاصة بين الطائفة المهنية التى ينتمى إليها الفرد والدولة إلى علاقة عامة بين الفرد والحياة الشعبية ، وكانت تحول نشاطه ووضعه ، وهما نشاط ووضع بورجوازيان ، إلى نشاط ووضع عامين ، كنتيجة لتنظيم المجتمع البورجوازي . وكانت كذلك تظهر وحدة الدولة وضميرها وإرادتها والسلطة السياسية العامة بمظهر المسائل التى تخص الملك ، الملك الذى يتميز بأنه مفصول عن الشعب وعن رعاياه .

والثورة السياسية التى قلبت سلطة الملك وجعلت شئون الدولة شئوناً

للشعب ، وجعلت من الدولة السياسية مسألة عامة ، أى دولة واقعية ، هذه الثورة حطمت بالضرورة كل شئ : الطبقات والطوائف المهنية ، والمشرفين على مصالحها ، والإمتيازات التى كانت تفصل بين الشعب وبين المجتمع . وإذا فالثورة السياسية ألغت الطابع السياسى البورجوازى ، وحلته إلى عناصره البسيطة ، الأفراد فى جهة ، وفى جهة أخرى العناصر المادية الفكرية التى تشكل مادة الحياة ، والوضع البورجوازى لهؤلاء الأفراد . وأطلقت الروح السياسية إن صح التعبير التى كانت مفككة ومجزأة وضائعة فى مآزق المجتمع الإقطاعى ، وجمعت من شتاتها وحررتها من اختلاطها بالحياة البورجوازية ، وجعلت فى الدائرة نشاط المجتمع وقضية الشعب العامة ، الدائرة المستقلة نظريا عن هذه العناصر الخاصة للحياة البورجوازية . ولم يبق للنشاط الخاص والموقف الخاص للحياة إلا أهمية فردية ، ولم تعد هى العلاقة العامة بين الفرد وبين هيكل الدولة . بل إن المسائل العامة منظورا إليها بوصفها كذلك تصبح مسائل عامة لكل فرد ، كما تصبح القضية السياسية وظيفية عامة .

وكان اكتمال مثالية الدولة فى نفس الوقت اكتمالا لمادية المجتمع البورجوازى ، فألغيت مع إلغاء النير السياسى فى وقت واحد القيود التى كانت تقف عثرة فى سبيل أنانية المجتمع البورجوازى ، فقد كان

التحرر السياسى فى نفس الوقت تحرراً للمجتمع البورجوازى من السياسية حتى من مظهر أن يكون له مضمون له صفة عامة .

لقد انحل المجتمع الإقطاعى من أساسه ، أى الإنسان ، لكنه الإنسان الإنسانى الذى كان أساس المجتمع الإقطاعى فى الواقع .

ولكن هذا الإنسان عضو المجتمع البورجوازى هو أساس وشرط الدولة السياسية . واعترفت به الدولة بهذه الصفة فى حقوق الإنسان :

غير أن حرية الإنسان الإنانى ، والاعتراف بهذه الحرية ، هى فى الأصح الاعتراف بحركة هذه العناصر الفكرية والمادية التى تكون مضمون الحرية ..

وإذاً فالإنسان لم يتحرر من الدين ، بل هو تلقى الحرية الدينية ولم يتحرر من الملكية ، ولم يتحرر من أنانية الحرفة والصناعة بل تلقى حرية الحرفة والصناعة .

إن إنشاء الدولة السياسية وانحلال المجتمع البورجوازى إلى أفراد كل منهم مستقل عن الآخر وتضبط الحقوق علاقاتهم كما كانت الامتيازات تضبط علاقات الطوائف المهنية ، تم هذا بعمل واحد . فالإنسان بوصفه عضواً فى المجتمع البورجوازى ، الإنسان غير

السياسى ، يبدو بالضرورة بوصفه إنسانا طبيعيا ، وتبدو حقوقه كما لو كانت حقوقا طبيعية . الآن نشاطه الواعى يتركز فى العمل السياسى . والإنسان الإنسانى هو النتيجة السلبية للمجتمع المنحل . والثورة السياسية تفكك الحياة البورجوازية إلى عناصر من غير أن تحدث الثورة فى هذه العناصر نفسها وتخضعها للنقد ، فالثورة السياسية بالنسبة للمجتمع البورجوازى أى بالنسبة إلى عالم الحاجات والعمل والمنافع الخاصة والحق الخاص – تماما كما هى بالنسبة إلى أساس وجودها ، هى فرض ليس له إثبات ، وعلى ذلك تكون هذه النسبة كذلك كنسبتها إلى أساسها الطبيعى ، وأخيرا فالإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع البورجوازى يعد إنسانا بمعنى الكلمة ، الإنسان بتعارضه مع المواطن ، لأن الإنسان بصفته تلك موجود وجودا مباشرا محسوسا وفرديا ، على حين أن الإنسان المواطن أو الإنسان السياسى ليس سوى الإنسان المجرد المصنوع بوصفه شخصا رمزيا معنويا . ولا يتم التعرف إلى الإنسان الحقيقى إلا فى شكل الفرد الأنانى ، بينما يتم التعرف إلى الإنسان الواقعى فى شكل المواطن المجرد .

ويصف « روسو » وصفا رائعا هذا التجديد للإنسان السياسى فيقول فى كتابه « العقد الاجتماعى » (الجزء الثانى) « إن الذى يجرؤ على البدء فى وضع شرائع لشعب من الشعوب عليه أن يحس

بإمكانية تغيير الطبيعة البشرية إن صح التعبير ، وتحويل الفرد ، الذى هو فى ذاته كل متكامل وفى نفس الوقت متضامن جزئياً مع كل أكبر يتلقى منه هذا الفرد بمعنى من المعانى حياته ووجوده ، وإمكان إحلال الوجود الجزئى والمعنوى محل الوجود المادى المستقل ، وعليه أن ينزع من الإنسان قواه الخاصة ليمنحه قوة غريبة عليه ، وقوى لا يستطيع استخدامها دون أن يعاونه الآخرون .

إن كل تحرر ليس إلا رد العالم الإنسانى والعلاقات الإنسانية إلى الإنسان نفسه .

والتحرر السياسى هو تحويل الإنسان ، من ناحية إلى عضو من أعضاء المجتمع البورجوازى وفرد أناى مستقل ، ومن ناحية أخرى إلى مواطن وشخص معنوى .

ولا يتحقق التحرر الإنسانى إلا حين ينصرف الإنسان عن أن يكون مواطناً مطلقاً ويصبح عضواً فى مجتمعه ، كإنسان له شخصية فى حياته اليومية وعمله وموقفه ، وحين يتعرف إلى « قواه الحقيقية » وقوته الخاصة ، كجزء من قوى المجتمع ، التى لن تعد بعد ذلك معزولة عنه كقوة سياسية .



الجزء الثانى

قدرة اليهود والمسيحية على التحرر حالياً

يدرس « برونو باور » تحت هذا العنوان العلاقة بين الدينين المسيحى واليهودى ، وعلاقة الدين « بإمكانية أن يصير حراً » .

ويتوصل « باور » إلى هذه النتيجة : « ليس على المسيحى إلا أن يرتفع درجة ، إلا أن يتخطى دينه ، لكى يلغى الدين بصورة عامة (أى يصبح حراً) . أما اليهودى ، فعلى العكس ، عليه رغماً عنه أن يتخلى عن جوهره اليهودى ، وليس ذلك فقط ، ولكن عليه أيضاً أن يتخلى عن تطوير دينه نحو الاكتمال ، وهو التطوير الذى ظل غريباً عليه » (ص ٧١) .

وإذن فباور يحول هنا مسألة التحرر إلى مسألة دينية صرفة ، ويتكرر السؤال اللاهوتى القديم الذى يتساءل أيهما أوفر حظاً فى التوصل إلى الخلاص : اليهودى أم المسيحى ؟ يتكرر هنا بشكل جديد فيسأل . أيهما أكثر قدرة على التحرر ؟ ولم يعد السؤال هو : ما الذى يجعل الإنسان حراً ، اليهودية أم المسيحية ؟ بل صار السؤال عكس

ذلك : ما الذى يجعل الإنسان أكثر حرية : نفى اليهودية ، أم نفى المسيحية؟

« إذا كان اليهود يريدون الحرية فعليهم أن يعتقدوا المسيحية ، المسيحية المتهاوية ، الدين المتهاوى عموماً ، أى يعتقدوا التنوير ، الروح النقدية وما ينتج عنها ، إنسانية حرة » (ص ٧٠) .

فالمسألة إذن عند « باور » هى مسألة الإيمان بشئ من الأشياء ، وليست هى الإيمان بالمسيحية بالذات ، ولكنه الإيمان بالمسيحية فى مرحلة تهاويها ، أى بالفلسفة والنقد .

ويطالب « باور » اليهود بالانفصال عن جوهر المسيحية ، ولكن هذا الطلب لا ينبع ، كما يقول هو نفسه ، من تطور الطبيعة اليهودية . وما دام باور فى نهاية مناقشته للمسألة اليهودية ، لا يرى فى اليهودية إلا أنها نقد دينى للمسيحية ، فكان من المتوقع أن يحول مسألة التحرر إلى عمل فلسفى لاهوتى ، فباور يعد الطبيعة المثالية المطلقة لليهودى ، أى دينه بمثابة جوهره كله ، ومن ثم يخرج بحق بهذه النتيجة . « أن اليهودى لا يقدم للإنسانية شيئاً عندما يتخلى عن قانونه الخاص المحدود ، أى عندما يلغى يهوديته » (ص ٦٥) .

وبذلك تتحول العلاقة بين اليهود والمسيحيين إلى هذه العلاقة : أن

تحرير اليهودى بالنسبة إلى المسيحى يشكل أهمية نظرية لها طابع إنسانى عام ، فاليهودى واقع يسوء فى عين المسيحى الدينية ، وحالما تنتهى عين المسيحى عن أن تكون عيناً دينية ، فإن هذا الواقع ينتهى عن أن يسئ إليه ، وإذن فتحرير اليهودى لا يمكن أن يكون المهمة التى تتناسب مع المسيحى .

« وإذا كان اليهودى يريد أن يتحرر ، فعليه عكس ذلك أن يضطلع ، إلى جانب ما يضطلع به هو شخصياً كيهودى ، بعمل المسيحى ، أى يقوم بنقد الأناجيل ونقد حياة المسيح الخ » .

« وعلى اليهود أن يتدبروا أمورهم ، فهم الذين يقررون مصيرهم ، لأن التاريخ لا يسمح بأن يُسَخَّر منه » (ص ٧١) .

أما نحن فنحاول تحطيم الصيغة اللاهوتية للمسألة ، عندما تتحول مسألة إمكان تحرير اليهود إلى مسألة أى عناصر المجتمع يجب التغلب عليه لكى تُلغى اليهودية ، لأن قدرة اليهود على التحرر تعتمد على علاقة اليهود بتحرير العالم المستعبد كله .

ولننظر إلى اليهودى الذى يعيش الواقع المعاصر ، وليس إلى يهودى السبب كما فعل « باور » ، بل اليهودى الذى يعيش الحياة اليومية العادية .

ما هو الأساس الدينى لليهودى ؟ إنه الضرورة المادية ،
المنفعة الشخصية .

ما هو هدف عبادة اليهودى فى هذا العالم ؟ إنه الربا . ما هو إليه
الدينوى ؟ إنه المال .

حسن إذن ، إن التحرر من الربا والمال ، أى من اليهودية
العملية الواقعية ، سيشكل تحرر عصرنا .

وتنظيم المجتمع بحيث يلغى الشروط السابقة لقيام الربا ، وبالتالي
يلغى إمكانية الربا ، سيجعل وجود اليهودى مستحيلا ، وسينوب
الإيمان الدينى لليهودى تحت ضغط الحياة الحقيقية للمجتمع مثلما
تتلاشى الروائح العفنة .

ومن ناحية أخرى ، لو أن اليهودى أقر بأن طبيعته المادية لا قيمة
لها ، ولو أنه سعى إلى إلغائها ، فإنه سيكون من الساعين إلى تحرير
الإنسانية تحريرا بسيطا ، ولكانت محاولته بمثابة الخروج عن الخط
الذى سار عليه تطوره حتى ذلك الوقت ، نابذاً بهذه الطريقة أعلى
تعبير عملى عن الاغتراب الإنسانى ، اغترابه عن نفسه .

وهكذا نتعرف فى اليهودية عموماً على عنصر مناهض للمجتمع قد
بلغ قوته الحالية من خلال تطور تاريخى أسهم فيه اليهود بشغف . إن

التحرر اليهودى يعنى فى النهاية تحرر الإنسانية من اليهودية .

إن اليهودى قد حرر نفسه بطريقة يهودية : « إن اليهودى مثلا الذى يعيش فى فيينا فى بيئة متسامحة ، هو الذى يقرر بسلطته المالية مصير الإمبراطورية الألمانية كلها . واليهودى الذى بلا حقوق فى أصغر دولة ألمانية ، يقرر مصير أوروبا .

«وفى الوقت الذى تتغلق أبواب الطوائف المهنية أمام اليهودى ، أو لا تتعاطف معهم حتى الآن ، فإن جرأة الصناعة الخاصة تسخر من عناد مؤسسات القرون الوسطى» ^(١) .

وليس هذا حدثا منعزلا ، فاليهودى تحرر على الطريقة اليهودية ، ليس بأن أصبح سيد السوق المالية فحسب ، وإنما لأن المال أصبح عن طريقه (بفضله أو بدونه) قوة عالمية ، وأصبحت الروح العملية اليهودية هى الروح العملية للشعوب المسيحية . لقد حرر اليهود أنفسهم بنفس النسبة التى صار بها المسيحيون يهودا .

يقول الكولونيل هاملتون « إن سكان نيوجانلند المتدينين ، والمتحررين سياسيا ، هم نوع من اللاوكون Laocoon ^(٢) ، الذى لا

(١) باور : المسألة اليهودية ص ١٤ .

(٢) اللاوكون Laocoon ابن بريام وهيكيب ، كاهن معبد أبوللو فى طرواده ، خنقته مع أولاده حيثان ضخمتان ، والأسطورة إغريقية .

يبدل أقل الجهد كى يحرر نفسه من الجهات التى تخنقه . إن صنم المال هوربّ هؤلاء الناس : إنهم يعبدونه . لا بالشفاه فحسب ، ولكن بكل قوى جسومهم وروحهم . والدنيا فى عيونهم ليست سوى بورصة ضخمة . وهم على إيمان بأنهم لم يُرسلوا إليها إلا لكى يكونوا أغنى من جيرانهم ، فالربا قد سيطر على كل أفكارهم ، والمتعة التى يستمدونها من الدنيا هى متعة تغيير ما يشغل هذه الأفكار ، وعندما يسافرون يحملون معهم مكاتبهم أو مخازنهم ، إن صح التعبير ، على ظهورهم ، ولا يتحدثون فى شئ إلا الفوائد والأرباح ، فإذا حولوا أبصارهم للحظة بعيدا عن أعمالهم الخاصة ، فإنما ليدسوا أنوفهم فى أعمال الناس الآخرين .

والحقيقة أن سيطرة اليهودى المادية على العالم المسيحى قد صارت فى الولايات المتحدة مسألة مقبولة فى الحياة اليومية لدرجة أن التبشير بالأنجيل والترويج لتعاليم المسيحية نفسها قد صار موضوعا للتجارة، وتحولا إلى سلعة تجارية ، ويتكسب التاجر المفلس من الأنجيل مثلما يمتهن الواعظ الثرى التجارة ، « ففلان من الناس الذى يرأس جماعة دينية محترمة قد يكون قد بدأ حياته تاجرا ، وفشلت تجارته فاتجه إلى الدين وصار من رجاله . وهذا الآخر بدأ حياته رجل دين ولكنه عندما ملك مبلغا من المال تحت تصرفه ، ترك

كرسى الوعظ إلى التجارة ، وتعد الوظيفة الدينية لدى عدد كبير من الناس مهنة صناعية حقيقية »^(١) .

ويرى باور أنه ليس بصحيح أن نقول إن اليهودى محروم الحقوق السياسية ، فهو عمليا يملك قدرة هائلة ، ويمارس نفوذه السياسى كاملاً ، رغم أنه محروم من ممارسته تفصيلاً .

والتناقض بين هذه القوة السياسية الواقعية ، وبين حقوق اليهود السياسية . هو التناقض العام بين السياسة وبين ما للمال من قوة ، فالسياسية من الناحية النظرية فوق اعتبارات المال ، ولكنها من الناحية العملية تخضع كلية لقوة المال .

لقد ثبتت اليهودية جنباً إلى جنب مع المسيحية ، ليست كناقذ دينى للمسيحية فحسب ، أو كمحقق رسمى فى أصلها الدينى ، بل وكذلك لأن الروح العملية لليهودية استمرت قائمة فى المجتمع المسيحى وحققت فيه أعلى ما يمكن أن تبلغه من تطور .

واليهودى الذى سيبقى نفسه فى موقف العضو الخاص الذى يتميز بموقف خاص فى المجتمع البورجوازى ، يصور بطريقة خاصة اليهودية فى المجتمع البورجوازى .

(١) بومون Beaumont P. 185.186

ولقد عاشت اليهودية ، ليس ضد التاريخ ، وإنما بالتاريخ ، وكان المجتمع البورجوازي ينجب اليهودى باستمرار من أعماق نفسه .

ما هو جوهر الديانة اليهودية ؟ .. هو المنفعة العملية ، الأثانية .

واذن فالإله الواحد الذى يؤمن به الميهودى هو فى واقع الأمر عدد من الآلهة . إنه عدد من المنافع وإيمانه يجعل الشريك نفسه غاية من غايات القانون الإلهى . المنفعة العملية الأثانية هى أساس المجتمع البورجوازي ، وتظهر كأساس للمجتمع البورجوازي حالما يقيم هذا المجتمع بولته السياسية الخاصة به . وإله المنافع العملية والمنفعة الخاصة هو المال .

إن المال : هو إله إسرائيل الفيور ، وإلى جانبه لا ينبغي لأى إله أن يعيش .

والمال : يحط من شأن كل آلهة البشر ويحيلها إلى سلعة .

والمال : هو القيمة العامة ، والتي تكون فى ذاتها كل الأشياء ، وهو لهذا قد جرّد كل العالم من كل القيم : عالم الناس وعالم الطبيعة .

والمال : هو جوهر حياة الإنسان ، وهو عمله الذى اغترب عنه ، ويسيطر عليه كوحش يتهدهده ، ويستعبده .
لقد صار إله اليهود إلهاً دنيوياً ، وصار بالربا إلها علمانيا ، وأضحت المتاجرة الإله الحقيقى لليهود .

والفكرة التى يكونها الإنسان عن الطبيعة ، وهو واقع تحت سيطرة الملكية الخاصة ، لا يمكن أن تكون إلا الازدراء الحقيقى ، والخط المادى من شأن الطبيعة ، كما هو قائم فى الدين اليهودى ، حتى ولو كان بالتخيل .

وفى هذا المعنى يشكو توماس مونزر قائلاً « إن كل الكائنات قد تحولت إلى أشياء يملكها الناس ، السمك فى الماء والطيور فى الهواء ، والنبات على سطح الأرض - إن الكائنات كذلك ينبغي أن تتحرر » .

وما يتقرر كتنظرية فى الديانة اليهودية ، وهو الازدراء للتفكير النظرى والفن والتاريخ ، والإنسان نفسه كغاية فى ذاته ، إنما هو فى الواقع وجهة نظر عملية لرجل المال يقرها عن وعى ، وحتى العلاقات بين الجنسين ، بين الرجل والمرأة ، تصبح موضوعاً للتجارة ، وتستحيل المرأة إلى سلعة يتاجرون فيها .

وقانون اليهودى ، الذى يميزه الاساس المتين ، ليس
إلا صورة هزلية دينية للأخلاق ولل قانون عموما ، ولكنه
يزود دنيا الملكية بالطقوس الرسمية التى تلبسها
لعمليتها التجارية .

إن اليسوعية ^(١) اليهودية - تلك اليسوعية العملية ، التى يقول عنها
باور أنها تتناول فى التلمود اليهودى استخدام عالم المنفعة الشخصية
استخداماً خداعاً للقوانين التى تحكم ذلك العالم - هذه اليسوعية
اليهودية هى الفن الكبير الذى يبرع فيه عالم المنفعة الشخصية .

والواقع أن العمليات التجارية لهذا العالم داخل إطار قوانينه هى
إلغاء مستمر بالضرورة لهذه القوانين ، لأن العالم لا يستطيع أن
يتحرك داخل هذه القوانين دون أن يلغىها باستمرار .

ويطبع اليهودى قوانينه ، لا لأنها تعبر عن إرادته وجوهره ، ولكن
لأن الإنسان اليهودى تسيطر عليه هذه القوانين ، وسيعاقب لو
تجاوزها .

(١) اليسوعية هى جماعة يسوع (المسيح) أسسها القديس أجناس لويولا سنة
١٥٤٠ ، وكانت تستخدم الدين استخداما مخادعا ، وكانت تلقب رئيسها
بالجنرال ، كما كانت تعادى إنشاء الجامعات فى فرنسا ووقفت ضد النظام
البرلماني . (الحفنى)

إن ديانة الضرورة العملية بوسعها بحكم طبيعتها ، أن تبلغ الكمال من خلال الممارسة وحدها ، لأن الممارسة هي حقيقتها .

إن اليهودية لا تستطيع أن تخلق عالماً جديداً ، وهي لا تستطيع إلا أن تسحب ما يبدعه العالم من أشياء جديدة ومن علاقات إلى داخل مجال نشاطها ، لأن الحاجة العملية ، التي تحركها المنفعة الشخصية ، تعمل عملها بطريقة سلبية ، وهي حاجة لا تتوسع في مطالبها وفق مشيئتها ، وإنما تتوسع كلما كانت الظروف الاجتماعية ميسرة لهذا التوسع ، أى كلما كان المجتمع فى تطور .

إن اليهودية تبلغ ذروتها باكتمال المجتمع البورجوازي ، ولكن المجتمع البورجوازي لا يبلغ اكتماله إلا فى العالم المسيحي ، وتحت حكم المسيحية ، التي تستبعد كل العلاقات الإنسانية - القومية والطبيعية والأخلاقية والنظرية - يمكن للمجتمع البورجوازي أن يفصل نفسه تماماً عن حياة الدولة ، وأن يمزق كل هذه الروابط الاجتماعية التي تربط بين الناس بوصفهم جنساً بشرياً ، وأن يستبدل بها الأنانية ومطالب المنفعة الشخصية ، وأن تذيب العالم الإنسانى فى عالم كله أفراد ذريون يعادى بعضهم بعضاً .

إن المسيحية قد انبثقت عن اليهودية ، ولكنها الآن نكمت على عقبيها مرتدة إلى اليهودية .

وكان المسيحى فى البداية يهفوا لى المثالية ، بينما كان اليهودى هو المسيحى العملى ، ولكن المسيحى وقد صار عمليا قد عاد من جديد فأصبح يهوديا .

ولم تنتصر المسيحية على اليهودية إلا فى الظاهر فقط ، لأن المسيحية كانت أكثر سموا ، وأكثر روحية ، من أن تستطيع أن تلغى وحشية الحاجات العملية ، إلا بتصعيد هذه الحاجات إلى عالم أثيرى وحشى .

والمسيحية هى الفكر السامى لليهودية .

واليهودية هى التطبيق العملى فى الحياة اليومية للمسيحية . ولكن هذا التطبيق لم يكن فى وسعه أن يكون تطبيقا عاما ، إلا عندما توصلت المسيحية ، نظرياً ، أن تكون الدين الكامل للإنسان المغترب عن نفسه وعن العالم .

وعندها فقط ، استطاعت اليهودية أن تتوصل إلى السيطرة سيطرة عامة ، وإلا طُرد الإنسان والطبيعة خارج ذاتيهما ، بحيث جعلتهما - الإنسان والطبيعة - شيئا تجارياً ، يخضع إلى الحاجة الانانية ، وإلى المتاجرة بالربا .

والتخلي عن جوهر الإنسان هو ممارسة للتخلي بشكل فعلى .
ومثلما أن الإنسان ، بسيطرة الدين عليه ، يحيل كل كائن موجود إلى
كائن خرافى غريب عنه ، فكذلك لا يستطيع الإنسان ، بسيطرة
الحاجة الأنانية عليه ، أن يؤكد ذاته ، ومن ثم فهو لا يستطيع وهو
واقع تحت سيطرة الحاجة الأنانية إلا أن ينتج أغراضا عملية ، بأن
يخضع ما ينتجه ، وكذلك نشاطه ، لسيطرة جوهر غريب هو المال .

وما يتحلى به المسيحى من أنانية روحية ، يستحيل بشكل حتمى ،
فى ظل الحياة العملية الكاملة ، إلى أنانية اليهودى الملهية ، وتحول
الحاجة السماوية إلى حاجة دنيوية وتصبح الذاتية أنانية .

ونحن لا نفسر صلابة اليهودى . بدينه ولكننا نفسرها ، فى الأصح
بالأساس البشرى لدينه . وهو الحاجة العملية الأنانية .

ولأن جوهر اليهودى يتحقق فى المجتمع البورجوازى ، لا يستطيع
المجتمع البورجوازى إقناع اليهودى بخيالية جوهره الدينى (الذى
ليس إلا المفهوم المثالى للضرورة العملية) .

ونحن من ثم لا نعثر على جوهر اليهودى المعاصر فى التوراة
والتلمود فحسب ، ولكننا كذلك نجده فى المجتمع المعاصر . وهو جوهر
ليس مجردا ، بل هو جوهر عملى مطلق فى عمليته ، ثم هو كذلك

جوهري ليس بمثابة حدود اجتماعية تحد اليهودي ، وإنما هو بمثابة حدود يهودية تحد المجتمع .

وعندما ينجح المجتمع في إلغاء الجوهر العملي لليهودية ، أي إلغاء المتاجرة بالربا وظروف قيامها ، عندئذ يصبح اليهودي مستحيلا ، ذلك لأن ضميره لم تعد هناك حاجة إليه ، لأن الأساس الذاتي لليهودية ، هو الحاجة العملية ، قد صار له شكل إنساني ، لأن المنازعة بين الوجود الفردي المتعين للإنسان وبين وجوده الاجتماعي قد أُلغيت .

ومن ثم فالتحرير الاجتماعي لليهودية هو تحرير للمجتمع من اليهودية

كارل ماركس سنة ١٨٨٤

انتهى كتاب « عالم بلا يهود »

فهرست الكتاب

- * مقدمة ودراسة ٣
- * لماذا سمى اليهود بالساميين ؟ ١٦
- * اسم اليهود « العبرانيون » ١٩
- * العداء لليهود ٢٢
- * اليهودى بمصطلح التحليل النفسى ٢٤
- * اليهودى والمواطن العالمى ٢٦
- * المسألة اليهودية عند العرب ٢٩
- * اليهود فى بلاد العرب ٣٢
- * ظهور المسألة اليهودية ٣٤
- * بنو قينقاع ٣٦
- * بنو النضير ٣٧
- * بنو قريظة ٣٩
- * يهود خيبر ٣٩
- * الحل الإسلامى للمسألة اليهودية ٤٠
- * سائر والمسألة اليهودية ٤٤

- * المسألة اليهودية والنازية ٥١
- * الحل السوفييتي للمسألة اليهودية ٧١
- * بيروبيدجان ٧٢
- * الصهيونية والتحالف الإمبريالي ٧٩
- * الماركسية والصهيونية ٨٥
- * برونوباور ٩٦
- * كتاب ماركس ٩٧
- * المسألة اليهودية كارل ماركس ١٠٢
- * بين اليهودية والمسيحية ١١٠
- * اليهودية والدستور ١١٢
- * التحرر السياسي والتحرر الإنساني ١١٥
- * الدولة الدينية والدولة الديمقراطية ١٢٣
- * طريق التحرر الجذري من اليهودية ١٣١
- * قدرة اليهود والمسيحية على التحرر حاليا ١٤٨

* * *

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع ٤١٥٣ لسنة ١٩٩٢

الترقيم الدولي

I.S.B.N

977 — 00 — 3318 — 9

طبع: آسون

العنوان: ٤ فيرور - متفرع من إسماعيل أباطه

تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

هذا الكتاب

إن اليهود مشكلة في الشرق الأوسط ، وكل كتب التاريخ ، وحتى التوراة نفسها ، والأنجيل الأربعة تحكى عنهم كمشكلة . والمشكلة أو المسألة اليهودية كتب فيها كثيرون ومنهم فرويد ، وسارتر ، وديورانت ، وبوبر ، وهتلر ، وفون شوينر ، وكروجر ، وجوينو ، وتشمبرلين ، ولوثر ، وهرتزل ، وابن جوريون . وتصدى لهذه المشكلة باقتراحات لحلها كثيرون أيضا ، فهناك الحل الفارسي ، والحل الروماني ، والحل الإسلامي ، والحل المسيحي ، والحل اليهودي ، والحل الماركسي ، والحل السوفييتي .

وهذا الكتاب يلقي الضوء على كل ذلك ، ويقدم ترجمات عن نصوص في غاية الأهمية ، تزيدنا وعيا بما نحن عليه ، وبما ينبغي أن نتخذه من خطوات للتعامل مع هذه المشكلة أو المسألة ، وهذا الكتاب بمثابة دعوة للعرب والمسلمين جميعا أن يفكروا ، وأن يتذكروا دائما أنه على بعد بضعة كيلومترات منهم أينما كانوا ، جماعة من المرضى الذهانيين ، يعيشون في بيمارستان اسمه إسرائيل ، وقد جعلوا حدودهم كل منطقة الشرق الأوسط - كما يقول ابن جوريون ، بل العالم بأسره . وحلم إسرائيل أن تكون القدس عاصمة للعالم . وطريقها لتحقيق ذلك هو خلق « اليهودي الجندي » ، والكوجيتو الذي تقول به هو « نحن نحارب وإذن فنحن موجودون » .

د . عبد المنعم الـ



طبع . نشر . توزيع
دار الإرفان للنشر والتوزيع
٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ